في ظلال الزيتونة

١١

رواية

عليه السلام

الطبعة الثالثة

كمال السيّد


بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: عليه السلام
تأليف: كمال السيّد
الطبعة الثالثة: نوفمبر ٢٠٢٢ - ربيع الثاني ١٤٤٣ هـ
إعداد ونشر: مؤسسة كلمات للطباعة والنشر
البريد الإلكتروني: kaleemat.pub@gmail.com

kamal.alsayeed

كلمات

الموقع الرسمي

الفهرس

أشعة المغيب ٧
انهيار السد ١٤
الحوادث ١٥
حقوق الإنسان ٢١
رحيل السلام ٢٩
صور الإسلام ٣٢
الاتجاه الزبيري ٣٤
المرجئة ٣٥
أفول القيم ٣٧
حوار في الشمس ٣٨
وصايا خالدة ٤٤
نَجيب بني أمية ٤٧
الرسالة ٥٣
بداية قرن جديد ٥٥
الأحول ٥٩
المواجهة ٦١



سهام علي ٦٤
زيد ٦٧
ثمن الكرامة ٦٩
ثمن الحرية ٧٢
رحى الأيام ٧٤
بعض أصحابه ٧٩

أشعة المغيب

عندما استيقظ الصبي وجد نفسه في هودج في قافلة تخترق الصحراء بين المدينة ومكة، وقد تكاثفت الظلمات بعضها فوق بعض، واشتد سطوع النجوم، وسمع صوتاً عرف فيما بعد أنه جده: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، وتذكر الصبي الذي ناهز الرابعة من عمره كيف أجلسه جده في حضنه وقبّله وقال له:

- رسول الله يقرؤك السلام.

وظلت الكلمات تطوف في روحه وخياله. كانت القافلة تنساب في قلب الرمال في طريق تكاثفت فيه الظلمة وسطعت فيه النجوم. كان الأطفال غارقين في نوم عميق وسفن الصحراء تنساب بين أمواج رمال تمتد إلى الأفق البعيد. كان الصبي الذي[1] يحمل اسم جده النبي يملأ عينيه من السماء الواسعة المرصعة بالنجوم، ربما كان هناك ما يترسخ

١. تاريخ دمشق: ٥١/ ٣٨، سير أعلام النبلاء: ٤/ ٢٤١

في أعماق ذلك الصبي الذي قدر له أن يشهد أول ملحمة فداء في تاريخ الإنسان.. كان القدر قد انتخبه ليكون شاهد عصره[1]، إنه الآن في أخريات عام ٦٠ هـ وقد مضي نصف قرن على رحيل آخر الأنبياء في تاريخ الإنسان. ربما تساءل الصبي في أعماقه لماذا يحمل اسم جده؟ ولماذا خصه الجد الراحل بتحية مباركة من عند الله؟ هذا العالم المليء بالأسرار الله سبحانه وحده الذي يراقب الأعماق .. يراقب حركة الإنسان والشاهد على مسار التاريخ البشري، وشاء سبحانه أن يختار من بين عباده شهداء، وقد قدّر للصبي الذي ناهز الرابعة من عمره أن يشهد حادثة خالدة .. حادثة لا نظير لها في تاريخ الإنسان، عندما قدّر له أن يكون أحد الذين رافقوا آخر الأسباط في حركته من أجل تصحيح مسار التاريخ من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى بقعة بالقرب من نهر الفرات حيث وقعت الواقعة الكبرى. لا أحد يعرف كيف مرت لحظات الحصار في تلك البقعة في دنيا الله ..؟! لا أحد يعرف بم كان يفكر الأطفال وهم يشعرون بالظمأ فيما كان الفرات تتدافع أمواجه نحو الخليج لماذا يمنعون الماء؟!

- كانت العيون الحزينة ترنو صوب الفرات.

شفاه يابسة تحلم بالمطر.. وفتيات بطهر الندى، بلغت قلوبهن الحناجر، يصغين برعب إلى طبول قبائل تحلم بالغزو والسبي.. ونسور مجنونة تحوم في السماء.. تترقب لحظة الانقضاض.. هي ذي لحظات

١. الشاهد من ألقاب الإمام محمد الباقر. جنان الخلود / ناسخ التواريخ بالاستناد إلى باقر شريف القرشي، حياة الإمام الباقر: ٣١١١

الغروب تتراكم ملتهبة، ومياه الفرات تتدافع خلف أشجار النخيل، وبدت الذرى متقدة.. الليل يوشك أن يهبط، وحمرة المغيب القانية تستحيل إلى رماد.. لقد حل الظلام في ذلك اليوم الحزين؛ كغراب يجثم فوق غصن ميت في مساء خريفي، وبدا هلال محرم قاربا تائها في سماء قاتمة الحزن.. غراب يجوس خلال الخيام ينشر ظله الثقيل.. وآهات تصاعَد من كل مكان، وأمنيات خضراء تحلم بالمطر والخصب والربيع.

ويطل يوم عاشوراء ليكون أطول يوم في تاريخ الإنسان، كان الفجر يشبه رمادا ذرته الريح في العيون. الفرات ما يزال يجري صوب الجنوب كحية تسعى، والقبائل التي تحلم بالسبي والأسلاب تنظر بعيون متنمرة إلى مضارب خيام تعصف بها الريح من كل مكان. اختلطت أصوات عديدة؛ رغاء جمال، وصهيل خيول، وقعقعه رماح، وسيوف تبرق من بعيد. وأشرقت الشمس حمراء حمراء بلون الدماء.. والتمعت ذرى النخيل، وتوهجت ذرات الرمال، واصطبغت وجوه القبائل بلون الجريمة.. لقد استيقظ الشيطان وراح يعربد كأنه يحتفل بجولته لقهر الإنسان. الجموع المحتشدة تموج كالسيل.. تريد أن تستبيح العالم الإسلامي بأسره؛ لن يقف في طريقها سوى الحسين وقد وقف وحيدا، وما عساها تفعل قافلة في مهب إعصار فيه نار.. سبعون سنبلة خضراء تحدق بها آلاف وآلاف من الجراد! كل العيون الحالمة ترنو إلى راية ما تزال تخفق.. راية كتب عليها «نصر من الله وفتح قريب...». زالت الشمس وراحت تجنح نحو المغيب والمعركة التي بدأت مع طلوع الشمس سوف تنتهي مع انطفاء

الشمس لتولد شمس أخرى.. شمس تسطع في النفوس.. تعلّم الإنسان معنى الحرية.. تعلّم الإنسان معنى الحياة. لا حياة مع الذل ولا موت مع الكرامة.. أجل سوف يبقى هذا اليوم الطويل شاهدا على مجد الإنسان عندما يلتحم بالسماء.. في هذا اليوم الخالد قهر الحسين الموت وألحق به الهزيمة.. من أجل هذا سيبقى الحسين ما بقي الضمير الإنساني. يا للهول هوت الراية شهيدة مضمخة بدماء الأنبياء، وهوى «ذو الفقار» بعد أن سطر في دنيا المقاومة أروع ملحمة في الاستبسال، وهوى الحسين جسدا مجرحا تتدفق منه الدماء نافورة حمراء بلون الحرية. أجل أضحى جسد الحسين الآن هامدا بلا حراك بعد أن دوخ القبائل... أجل هو الآن ساكن أما روحه فقد استوعبت الوجود والتاريخ والإنسان... انبرت عشرة خيول لترض الجسد الشهيد، لتمزق الذي قال (لا) في زمن الخنوع.. لتحطم الذي لم يعرف الخوف والهزيمة .. أجل أثبت الحسين في تلك الظهيرة العظمى أنه من الممكن تدمير الإنسان، ولكن من المستحيل هزيمته. وعندما عبرت الخيول من فوق جسد الحسين.. انهارت كل المقاييس، ولم تعد هناك حدود.. ولم يعد هناك معقول ولا معقول، ولم يعد هناك من مقدس.. كل العالم الإسلامي مستباح أمام خيل «يزيد». وظلت كلمات السبط تردد في المدى:

- يا أمة السوء بئسما خلفتم محمداً في عترته.

أما أنكم لا تقتلون رجلا بعدي؛ فتهابون قتله بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إياي.



ولقد صدقت نبوءة الحسين بعد أن اجتاحت جيوش يزيد المدينة المنورة، وقتل المئات من الصحابة، وانتهكت ألف عذراء.. وأعقب مذبحة الحرة في مدينة الرسول صلى الله عليه وآله أن حوصرت مكة المكرمة، وقصف بيت الله الحرام بالمجانيق، وأحرقت الكعبة، ولم يعد هناك من حياء في عصر يزيد.. إن أصعب لحظة في حياة الأطفال أن يروا ذئابا بشرية تتدفق نحو خيام تعصف بها الريح من كل مكان.. وقد استعرت شهوة الغزو والنهب في النفوس المنحطة. فرّ الأطفال على وجوههم وقلوبُهم تبحث عن رجل كان يحمي طفولتهم ويصون براءتهم. الأيدي الصغيرة تتشبث بالريح، والقبائل المتوحشة تطارد نسوة حسرت، والمخالب البشرية تنتزع بقوة أقراطا وأساور. وبدا «ذو حسم» ذلك الجبل المطل على أرض الملحمة ناسكا حزينا أو شيخا أحنت هامته السنون؛ فهو ينظر ساهما إلى ما يجري في هذه البقعة من دنيا الله. الذئاب البشرية ما تزال تعوي مأخوذة بشهوة النهب؛ كإعصار فيه نار. كانت القبائل تعصف بالخيام وفرّ الأطفال كطيور هاربة من سفن غرقت وسط الأمواج الهائجة. مرت سنوات؛ سنوات طويلة، ولكن الصبي الذي شهد الفاجعة لم ينس ولن ينس ما حدث في ذلك اليوم الطويل؛ وطالما سُمع يقول:

- قتل جدي الحسين ولي أربع سنين وإني لأذكر مقتله، وما نالنا في ذلك الوقت[1].

وقد قدّر لهذا الصبي الطاهر أن ينشأ نشأة جعلته يكتشف الطريق في

١. تاريخ اليعقوبي: ٦١/٢



زمن كثرت فيه الزلازل التاريخية، وبعد أن جثم شبح الرعب الأموي فوق الأرض الإسلامية من تخوم خراسان حتى سواحل أفريقيا على المحيط، وكانت كلمات والده العظيم قناديل تضيء له دروب الحياة. لقد كان زين العابدين يمثل نقطة السلام والنور في ذلك الزمن العصيب الغارق في ظلمات الظلم والقهر والاستبداد. وقد اطّلعت الأجيال على رسالة علي بن الحسين في الحقوق، فكانت خمسين مادة حقوقية ما تزال حتى اليوم نابضة بالجلال مفعمة بالإنسانية والخير للناس كل الناس. وكان محمد يتشرب كلمات والده فتصبح جزء من روحه وكيانه، وتندمج في وجوده اندماج النور في النور والهواء في الهواء ليصبح محمد امتدادا لوالده واستمرارا لمسيرته الإنسانية، ويكاد المرء يتصوره جالساً في حضرة أبيه يتلقى الكلمات.. كلمات الحق والحقيقة وكشوفات الإنسان عندما تمسه السماء:

- يا بني! لا تصحبن خمسة، ولا تحادثهم! لا تصحبن الفاسق فإنه يبيعك بأكلة فما دونها.

ويتساءل محمد:

- يا أبت وما دونها؟!

فيقول الوالد الحكيم:

- يطمع فيها ثم لا ينالها. ولا تصحب البخيل: فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه. ولا تصحب الكذاب: فإنه بمنزلة السراب يبعد



عنـك القريـب، ويقـرب منـك البعيـد. ولا تصحب الأحمـق: فإنه يريـد أن ينفعـك فيضـرك، وقد قيل: عـدو عاقل خيـر من صديق أحمق. ولا تصحب قاطع رحم: فإنه ملعون في كتاب الله في ثلاثة مواضـع: في سـورة محمـد؛ قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[1]. وفـي سـورة الرعـد؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[2]. وفي سـورة الأحزاب؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾[3].

ويعلّمه فعل الخيرات قائلا له:

- افعـل الخيـر إلـى كل مـن طلبـه منك، فـإن كان أهلا فقـد أصبت موضعـه، وإن لـم يكـن بأهـل كنت أنـت أهله. وإن شـتمك رجل عن يمينك ثم تحول إلى يسارك واعتذر إليك فاقبل عذره[4].

وفـي زمـن أصبـح فيه الكـذب أمرا عاديا فـي حياة المجتمـع قال زين العابديـن لأولاده: «اتقـوا الكذب؛ الصغير منـه والكبير، في كل جد وهزل:

١. محمد: ٢٢-٢٣.

٢. الرعد: ٢٥.

٣. الأحزاب: ٧٥.

٤. تحف العقول: ٢٨٢.



لأن الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير».

وقال له مرة:

- يا بني العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والعقل ترجمان العلم، واعلم أن العلم أبقى، واللسان أكثر هذرا.

وأن إصلاح الدنيا بحذافيرها في كلمتين، بهما إصلاح المعاش ملء مكتال ثلثاه فطنة وثلثه تغافل.. لأن الإنسان لا يتغافل عن شيء قد عرفه ففطن له. واعلم أن الساعات تذهب عمرك، وأنه لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى، وإياك والأمل الطويل فكم من مؤمل لا يبلغه، وجامع مال لا يأكله، ومانع مال سوف يتركه، ولعله من باطل جمعه، ومن حق منعه، أصابه حراماً وورثه واحتمل إصره وباء بوزره، وذلك هو الخسران المبين)[1]. وتنفذ هذه الكلمات في أعماقه نفوذ الماء في أغوار الأرض وتتجذر في روحه لتنبت وتعطي أكلها بعد حين.. سوف تتفتح في وجوده عبقرية فريدة، وسوف تجده يشمر عن ساعديه يبقر أرض المعرفة بقرا، مستخرجا كنوز العلم والثقافة الأصيلة ليتألق في سماء المعرفة ويعرف لدى الناس بالباقر.

انهيار السد

في تلك اللحظة التي عبرت فيها خيول يزيد من فوق صدر الحسين

---

١. كفاية الأثر: ٣١٩



انهارت السـدود، وأصبح العالم الإسلامي مسرحا لعمليات دموية رهيبة.. اجتاحـت جيوش الشـام المدينة المنـورة، وارتكبت فيهـا مذبحة مروعة، وأصبـح «يـوم الحرة» جرحـا نازفا في ذاكـرة أهلها، وتلا ذلـك حصار مكة، وقصـف الكعبـة بالمجانيـق إلـى أن احتـرق جانـب منهـا.. وغـرق العالم الإسلامي في دوامة من الرعب والقتل، ولم تعد هناك من معايير أو حدود.. كل شـيء ملـك للخليفـة الملك حتى وإن تسـمى بعبـد الملك. ومضى التاريخ يشـعل الحوادث على امتداد الأرض الإسلامية المرتمية الأطراف، وخـلال ثلاثـة عقـود وقعت حـوادث كبـرى أحدثـت تغيـرات جوهرية في النسـيج الفكـري، ولـم تكن هنـاك نقطة سـلام إلا تلك النقطـة المحاصرة فـي المدينـة المنـورة؛ حيث يعيـش بقية السـيف علي بن الحسـين زين العابديـن. في ذلك الزمـن الرديء، وفي تلك الحقبـة العاصفة كان ذلك الإنسـان يمثل ضمير الأمة الحقيقي.. الضمير المحاصر وهو يقاوم عربدة الغرائز التي أيقظها ملوك بني أمية وطغاتها.

الحوادث

فـي عـام ٦٤ هـ توفي يزيـد في ظـروف غامضة، وتوفي مسـلم بـن عقبة الـذي أطلق عليه اسـم «مسـرف» لكثرة مـا أوغل في دمـاء الأبرياء، وتكفي مذبحـة الحـرة في المدينـة المنـورة لإدانته وكفره بالإسـلام وانسـلاخه عن الإنسـانية، واسـتقبل إقليم الشـام تنازل معاوية الثاني عن الخلافة، وطعنه في والده وجده بشـيء من الذهول، وقد أعقب ذلك انفجار النزاع المدمر

بيـن القبائل القيسـية واليمانية وهي البذرة المشـؤومة التـي زرعها معاوية بن أبي سفيان، وبلغ الانحطاط درجة رهيبة أن راح عبيد الله بن زياد ذلك الطاغيـة التافـه يتطلـع إلى الاسـتيلاء على الخلافـة؛ بل تمكن مـن انتزاع تأييـد أهل البصـرة، ولكنهـم انقلبوا عليه فطـردوه، وهـرب متخفيا صوب الشـام لينضم إلى مروان بن الحكم. وفي خضم الصراع المسـلح بين بني أمية وعبدالله بن الزبير الذي أعلن نفسـه خليفة في مكة؛ ثار الخوارج في إقليـم الأهواز وأعلنـوا تمردهم على إرادة عبدالله بـن الزبير بعد خلاف وقع بيـن نافـع بن الأزرق وعبـدالله بن الزبير حول موقفه مـن عثمان وعلي. كما ثـار البربـر بقيادة كسـيلة معلنـاً ولاءه للروم وقـد تمكن من احتـلال مدينة القيروان في تونس، فاضطرت الجيوش الإسـلامية بعد مقتل عقبة بن نافع إلـى الانسـحاب حتى مدينـة برقة، وفيمـا كان عبدالله بن الزبيـر يعيد بناء الكعبـة بعد احتراقها بفعـل القصف إبان الحصـار، كان الطاعون يحصد أرواح النـاس فـي البصرة. وفـي الأردن في عام ٦٥ التفّـت القبائل اليمانية حـول مروان، فيمـا أعلن الضحاك بن قيس الفهري زعيم القبائل القيسـية تأييده لا بن الزبير. وفي «مرج راهط» بالقرب من دمشق اشتبكت الحشود فـي ملحمـة دامية أسـفرت عـن انتصـار القبائـل اليمانيـة وإعـلان مروان خليفة في كل الأقاليم الخاضعة لنفوذ الشام، وقد استمر الصراع المسلح بيـن القبيلتيـن وكان في طليعة الأسـباب التي أطاحـت بالحكم الأموي. ولم يمكث مروان في الخلافة سوى ستة أشهر، ولقي حتفه مخنوقا على يد أم خالـد زوجة يزيد والتي تزوجها مروان من أجل تحطيم شـخصية خالد،

وحتى لا يطالب بالخلافة وفقا للاتفاق الذي أُبرم بين حسان بن بحدل زعيم اليمانية وخالد بن يزيد. وفي هذا العام توفي الشاعر المخضرم النابغة الجعدي من بني عامر بن صعصعة واسمه حبان بن قيس أبو ليلى، وقد سمي بالنابغة لأنه أقام مدة لا يقول الشعر ثم نبغ فيه.. وهو من الحنفاء الذين أنكروا الخمر، واستنكروا الوثنية في الجاهلية، ثم أسلم بعد شروق الإسلام وقابل النبي. شهد الفتوحات في إيران، وكان إلى جانب الإمام علي في حرب صفين. نفاه معاوية إلى مدينة أصفهان، ومات بعد أن عمّر قرنا من الزمن[1]. كما توفي النعمان بن بشير أول من بايع أبا بكر من الأنصار في اجتماع السقيفة المعروف، وهو الذي حمل قميص عثمان إلى معاوية، وفرّ هارباً من مدينة حمص لتأييده عبدالله بن الزبير[2]. ولم يكد العام لينصرم حتى اشتعلت ثورة التوابين التي استهدفت الإطاحة بالحكم الأموي، واتجهت قواتهم بقيادة سليمان بن صرد إلى دمشق؛ حيث اصطدمت بالجيش الأموي الجرار القادم لاستعادة العراق من سيطرة ابن الزبير بقيادة عبيد الله بن زياد، وجرت المعركة في عين الوردة في نصيبين في الأراضي التركية، وفي معركة غير متكافئة دارت الدائرة على الثائرين، وهوى القائد الصحابي الجليل سليمان بن صرد الخزاعي شهيداً، فنظم رفاعة بن شداد عملية الانسحاب إلى الكوفة. وما لبث التوابون أن انضموا إلى المختار الثقفي الذي أعلن الثورة في الكوفة من

١. الأعلام: ٦/ ٥٨، العقد الفريد: ٢/ ٩٧، أسد الغابة: ٢٩١/٥

٢. البلاذري: ١٣٨، الطبري: ٤٠١/٢، البداية والنهاية:٨ / ٣٤٤

أجل الثأر من قتله سيدنا الحسين ومعاقبة الذين اشتركوا في ارتكاب المجزرة.

ومن أجل أن يتفرغ عبد الملك الذي أصبح خليفة للحروب الداخلية عقد مع إمبراطور الروم معاهدة سلام لمدة خمس سنين تدفع الدولة الإسلامية بموجبها خمسين ألف دينار سنويا للروم، واقتسام ضريبة الأرض في قبرص وأرمينيا الخاضعتين لنفوذ الدولة الإسلامية. وفيما كانت المجاعة تعصف بالشام ومصر كانت الجيوش الأموية تواصل تقدمها لاستعادة العراق، ولكن المختار الثقفي الذي أحكم قبضته في الكوفة، يرسل جيشا بقيادة القائد الموهوب إبراهيم الأشتر، فاستطاع الأخير من إنزال هزيمة ساحقة بالجيوش الأموية، وقتل القائد العام عبيد الله بن زياد بالرغم من عدم التكافؤ في القوى والذي كان يميل لصالح الجيش الأموي، وبذلك بلغ المختار أوج مجده السياسي.. وفي هذه الفترة تقاسم كل من الأمويين والزبيريين والمختار الثقفي القائد الشيعي بالإضافة إلى الخوارج الثائرين العالم الإسلامي. وفي عام ٦٧ كانت جيوش الزبير بقيادة مصعب تغادر البصرة صوب الكوفة، ولأسباب غامضة ظل إبراهيم بن الأشتر مرابطا في الموصل تاركا الكوفة تحت رحمة القدر، وما يزال تجاهله صيحات الاستغاثة القادمة من الكوفة يثير أسئلة عديدة. وواجه المختار مصيره بشجاعة باسلة، واستطاع أن يقاوم بإمكانات محدودة حصارا قاسيا استمر أربعة أشهر، ثم قرر الاستشهاد فغادر مع سبعة عشر من أنصاره القلعة ليقاتل ببسالة الألوف المحدقة، وقاتل

حتى الرمق الأخير ليسقط شهيدا وهو في السابعة والستين من الهجرة[1]، وارتكب مصعب مجزرة وحشية في القلعة بعد أن اتفق مع المحاصرين على تسليمها مقابل الأمان، كما أمر بإعدام زوجة المختار وهي ابنة النعمان بن بشير، فكانت أول امرأة يتم إعدامها بالسيف، وكان ذنبها الوحيد أنها قالت عن زوجها: رحمه الله كان عبدا صالحا. لقد استشهد المختار بعد أن حقق هدفه في تصفية معظم الرموز التي نفّذت مجزرة كربلاء وفي طليعتهم عبيد الله بن زياد حاكم الكوفة، عمر بن سعد قائد الجيش الأموي في كربلاء، شمر بن ذي الجوشن قائد جناح الأيسر والذي ارتقى صدر الحسين وقام بعملية الذبح، والحصين بن نمير، وحرملة بن كاهل وغيرهم من رموز الشر والانتهازية. ولعل محمد الباقر الذي يبلغ من العمر عشرة أعوام قد رأى أباه ولأول مرة يبتسم بعد أن وصلته أنباء محاكمة قتلة الحسين في الكوفة. وقد تزوج الإمام زين العابدين من الجارية التي أرسلها المختار إليه ليولد زيد الثائر الشهيد. وفي عام ٦٨ هـ وصل العالم الإسلامي مرحلة من التمزق مؤسفة، انعكست في الوقوف في عرفات عندما ارتفعت أربع رايات مختلفة كل منها لا تأتمّ بالأخرى؛ وهي راية محمد بن الحنفية، وراية الخوارج، وراية الأمويين، وراية الزبيريين، وكادت النزاعات أن تنفجر.

وفي هذا العام توفيت ليلى العامرية التي هام بحبها قيس حتى اشتهر

١. ولد المختار في السنة الأولى من الهجرة النبوية المباركة.

بمجنـون ليلى[1]، وانتشـرت قصة حبهما في البـوادي والمدن، وأصبحت أسـطورة من الأساطير الشعبية. وفي عام ٦٩ دخل الصراع مع البربر مرحلة حساسـة، وأصبح البربر أكثر شراسـة بسبب سياسـات التمييز العنصري التي انتهجها الأمويون وأمعنوا من خلالها في إذلالهم، وبدت في سـنة ٧٠ مؤشـرات الحسـم لصالـح عبد الملك بـن مـروان؛ إذ انتصـرت قواته التي اشـتبكت مـع الزبيريين فـي البصـرة وألحقـت بهـم هزيمة سـاحقة؛ الأمر الـذي فتـح الطريـق إلـى العـراق وخوض معركـة مصيريـة وهـي معركة دير الجاثليق وذلك في جمادى الآخرة من سنة ٧١ هـ، وفي هذا العام اندلعت ثورة الزنوج في تخوم البصرة فيما يعرف بالبطائح، وقد قُمعت الثورة بقسوة شـديدة على يد الجلاد المعروف عبد الله بن خالد القسـري أمير البصرة. ومع خمود هذه الثورة اندلعت ثورة للخوارج في الأهواز وثورة في البحرين، وتجـددت الغارات على الحدود الإسـلامية الشـمالية بتحريض من الروم ممـا اضطـر عبـد الملـك إلى دفـع أتاوة سـنوية تبلغ خمسـين ألـف دينار سنوياً، وعقد اتفاقية سلام لمدة عشر سنين مقابل وقف الغارات.

وفي عام ٧٢ هـ تم الفراغ من بناء قبة الصخرة المسـجد الذي بني بأمر عبـد الملك بعدما رأى تأثير الدعايـة الزبيرية في مكة ضد الأمويين فبنى مسجد قبة الصخرة ليحج إليه أهل الشام بدل الكعبة.

١. أجمـل مـا نسـب من شـعر قولـه: تعلقت ليلى وهـي ذات ذوائـب .. ولم يبـد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا .. إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم
خزانة الأدب: ٢/ ١٧٠، الأغاني: ١/٢، الأعلام: ٦/ ٦٠ - ١١٧.



حقوق الإنسان

وفي هذه الفترة العاصفة ظهرت رسالة الحقوق للإمام زين العابدين والتي تضمنت خمسين مادة حقوقية، ولم يُكتب لهذه الرسالة الإعلان من منبر حكومي أو رسمي، فظلت إرثاً تتناقله الأجيال.. أجيال المقهورين في الأرض العربية.. وكانت ولادة معافاة من كل ما يشوب الكلمة من أهواء ونرجسية.. إنها بحق أصداء لضمير الإنسان ذلك القانون الأخلاقي المودع في تكوين البشر، ولقد كان الإمام زين العابدين واعيا تماما لما عليه المجتمع في عصره فقد صنفهم إلى ستة أصناف فقال:

- «الناس في زماننا على ست طبقات: أُسد وذئاب وثعالب وكلاب وخنازير وشياه، فأما الأُسد فملوك الدنيا يحب كل واحد منهم أن يَغلب ولا يُغلب.. وأما الذئاب فتجاركم يذمون إذا اشتروا ويمدحون إذا باعوا. وأما الثعالب فهؤلاء الذين يأكلون بأديانهم، ولا يكون في قلوبهم ما يصفون بألسنتهم. وأما الكلاب فيهرون على الناس بألسنتهم، ويكرمها الناس من شر ألسنتها. وأما الخنازير فهؤلاء المخنثون وأشباههم لا يُدعَون إلى فاحشة إلا أجابوا. وأما الشياه فالمؤمنون الذين تُجز شعورهم، ويؤكل لحومهم، ويكسر عظامهم». ثم تساءل الإمام بمرارة: «فكيف تصنع الشاة بين أسد وذئب وثعلب وكلب وخنزير؟!»[1].

والرسالة موجهة للإنسان المسلم في كل زمان ومكان، فهي تبدأ

١. الشيخ الصدوق، الخصال، الأبواب الستة.



بقوله عليه السلام «اعلم رحمك الله أن لله عليك حقوقا محيطة بك في كل حركة تحركتها أو سكنه سكنتها أو منزلة نزلتها أو جارحة قلبتها أو آلة تصرفت بها». وفي هذه الفترة تعرضت مكة لحصار الجيش الأموي بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي جلاد العراق المعروف، وتقصف الكعبة من جديد بالمجانيق، وتنتهي الحرب بمصرع عبد الله بن الزبير وصلبه واستعادة السيطرة على الحجاز. وخلال ذلك تتعرض الدولة الإسلامية إلى تحد خطير عندما هدد الروم بقطع النقد؛ ذلك أن العملة المتداولة يومذاك كانت تضرب في الروم، وتحمل شعارات التثليث التي يناهضها الإسلام، وبدأت الأزمة عندما لاحظ عبد الملك أحد القراطيس المطرزة في مصر، فأمر بترجمته إلى العربية، وظهر أن الكتابات الرومية تعبر عن الشعار المسيحي الأب والابن والروح القدس، فكتب إلى أمير مصر يومئذ وهو عبد العزيز بن مروان والد الخليفة المعروف عمر، وأمر بإبطال هذا النوع من القراطيس، وإعداد قراطيس تحمل شعار التوحيد الإسلامي ويكتب عليها: «أشهد الله أنه لا اله إلا هو»، وعُمم الكتاب إلى سائر الأقاليم الإسلامية باستخدام هذا القرطاس ومعاقبة المخالفين، ويبدو أن هذا الإجراء أغضب إمبراطور الروم جوستنيان الثاني مما دفعه إلى إلغاء معاهدة السلام الموقعة سنة ٧٠، وقاد حملة عسكرية كبرى لاسترداد أرمينيا، فتصدت القوات الإسلامية المرابطة للجيش الإمبراطوري، وجرت معركة ضارية في مدينة سيواس، واندحر الجيش الرومي وقد انضم الأرمن بقيادة سنباط إلى الجيش الإسلامي كما انضم المقاتلون البغار وعددهم



عشرون ألف إلى القوات الإسلامية المدافعة. وفي مطلع صيف سنة ٧٤ هـ، وفيما كان العمل جاريا لإعادة بناء الكعبة الشريفة بعد الأضرار التي تعرضت لها بسبب الحرب الأهلية، والاستعدادات قائمة لغزو الروم وصلت تهديدات خطيرة حول قطع النقد، فقد هدد جوستنيان الثاني بضرب دينار جديد يتضمن شتماً للنبي صلى الله عليه وآله إذا لم يتراجع عبد الملك عن قراره بشأن القراطيس، وعندما اطّلع عبد الملك على مضمون الرسالة استدعى مستشاريه حول هذه الأزمة وقال: أحسبني أشأم مولود في الإسلام. وعندما وجد عبد الملك نفسه في حيرة من أمره قال له وزيره روح بن زنباع[1]: إنك لتعلم المخرج من هذا الأمر، ولكنك تتعمد تركه. فقال عبد الملك متلهفاً:

- ويحك من؟!

قال الشيخ الذي عركته السنون:

- الباقي من أهل بيت النبي.

وعلى وجه السرعة انطلقت خيول عربية تقطع المسافات باتجاه مدينة الرسول صلى الله عليه وآله، وقد استجاب الإمام زين العابدين، وأرسل ابنه محمداً بعد أن زوده بتعليماته. وقد استُقبل موفد الإمام استقبالاً حافلاً، ووقف علية القوم يتطلعون إلى وارث الأنبياء. كان الخليفة يتلهف لسماع ما يحمله محمد عن أبيه، نظر إلى ضيفه بإجلال وفي عينيه سؤال. ابتسم

١. وصفه عبد الملك بأنه قد جمع طاعة الشامي وذكاء العراقي وفقه الحجازي.



الشاب وقال:

- الرأي أن تبعث له برسالة تستمهله فيها مدة من الزمن.

- ثم؟!

- اجمع ما استطعت من الذهب والفضة.

- وبعد!

- وابدأ بصك الدرهم والدينار.. وليكن فيهما شعار الإسلام قل هو الله أحد ومحمد رسول الله.. فإذا فرغت من ذلك امنع تداول النقد الرومي، واعرض النقد الإسلامي.. وسُن لذلك العقوبات لمن يخالف ذلك. وكان «روح» يصغي بإعجاب لما يسمع فغمغم:

- الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وانطلقت في الصباح الباكر خيول بلق، تنهب المسافات إلى الحواضر والمدن، تحمل رسائل متشابهة، بالغة السرية، وشهدت أسواق الصاغة حركة غير عادية، وكانت الحلي الذهبية والمصوغات تختفي شيئا فشيئا، وأنشئت معامل لصك الدنانير الذهبية، وبدأ العمل بإنتاج النقد الجديد، وظهر لأول مرة في التاريخ النقد الإسلامي يتألق يحمل نداء التوحيد وشعار الرسالة الإسلامية. وعندما بدأ تداول العملة الجديدة استدعى عبد الملك كاتبه ليسطر ردا قوياً يليق بدولة الإسلام إلى جوستنيان الثاني الذي فوجئ بالدينار الإسلامي فأسقط في يده. وفي عام ٧٥ هـ دخل العراق عصر الإرهاب الحكومي في أبشع صورة عندما

نقـل الحجاج عبد الملك بن يوسـف من ولايـة الحجاز إلى حكم العراق. وفي هذا العام استأنف البربر الذين استكانوا إلى حين ثوراتهم، وقد برزت شـخصية نسوية عرفت باسم «الكاهنة» استطاعت توحيد البربر، وتكوين جبهة قتال واسعة دحرت فيها الجيوش الإسلامية، وتمكنت من السيطرة علـى شـمال أفريقيـا، كما عمـدت إلـى تخريب أماكـن غاية فـي الحيوية لصرف المسـلمين عن فكرة اسـترادادها. وثار الخـوارج الأزارقة في الجزيرة كما ثار الخوارج الصفرية في إيران، وحدثت معركة في كازرون بالقرب من مدينة قم، وقد قمعت تمردهم، واضطروا إلى الانسـحاب إلى مدينة كرمان شـرق إيـران. وفي سـنه ٧٦ تقـدم الخوارج الأزارقـة صوب الكوفـة، وتمكنوا مـن احتلالهـا، وأحكموا السـيطرة عليها بقـوة بحيث دمّـروا كل محاولات الحجاج لاسـترادادها. كما شـهدت البصرة ثورة بقيادة عبدالله بن الجارود كان هدفهـا طـرد الحجاج من العراق، وقد أخفقـت الثورة وانتهت بمصرع قائدها. وفي الأهوار المتاخمة للبصرة ثار الزنوج مرة أخرى بقيادة شـيرزاد، وفي سـنة ٧٧ اسـتطاع عبد الملك إخماد ثورة الخوارج الأزارقة، فنشـبت ثورة في المدائن بقيادة والي المدائن نفسـه المطرف بن المغيرة بن شـعبة الـذي وجد في الخوارج حركة ثورية فسـاندها، وأعلن خلع الخليفة ووالیه الحجاج، وسرعان ما أخمدت الثورة بمقتل المطرف.

وفي عام ٧٨ تجددت غارات الروم على الحدود الإسلامية؛ فقد أغارت السـفن الحربية على المغرب، وتمكن الروم من احتلال قرطاجة وقتلِ من فيهـا مـن المسـلمين، وأمعنت في السـبي والنهب. وفي سـنة ٨٠ هـ فتك

الطاعون بمدينة البصرة، واجتاحت السيول مدينة مكة المكرمة في موسم الحج، فجرفت الحجاج وأغرقت البيوت؛ كما شهد هذا العام اشتعال الصراع المسلح مع الأتراك في سجستان، ومع البربر في أفريقيا وأمارات في تخوم خراسان إضافة إلى الصراع مع الأرمن في أرمينيا بتحريض من القسطنطينية. وفيما كان الصراع المسلح محتدما بين المسلمين والبربر ومن ورائهم الروم اندلعت أخطر ثورة بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث وذلك سنة ٨١ هـ، واستطاع الثائرون إلحاق هزيمة بقوات الحجاج، ومن ثم دخول البصرة فاتحين.

وبلغ من خطورة الثورة أن عبد الملك عرض عليه عزل الحجاج وتوليته حُكم العراق. أما أسباب الثورة فتعود إلى سياسة الحجاج التعسفية وخطته في الهاء الجيوش العراقية بحروب توسعية، وإشغالهم بالمعارك بعيدا عن التدخل في السياسة ومعارضة نظام الحكم الأموي، وهي سياسة أقرتها دمشق لتركيع إقليم العراق وإخضاعه، واطلق على ثورة ابن الأشعث بـ (ثورة القراء) لكثرة مَن التحق بصفوف الثائرين من طبقة القراء التي تحظى باحترام عموم المسلمين، وبالرغم من ذلك استمرت المعارك مع البربر والروم، واستطاع المسلمون استرداد مدينة قرطاجة الاستراتيجية وطرد الروم منها. وقد أدى ذلك إلى إعلان قائد الأسطول البيزنطي التمرد على الإمبراطور وتنصيب نفسه إمبراطوراً على الروم باسم بيتريوس الثالث. وفي هذا العام نفّذ الحجاج جريمته الدموية بإعدام التابعي الجليل كميل بن زياد النخعي الذي روى دعاء الإمام علي عليه السلام

المعروف بدعاء كميل[1]. وفي سنة ٨٦ هـ تمكن يزيد بن المهلب من إلحاق الهزيمة بابن الأشعث الذي فر خارج الحدود. وفي سنة ٨٦ هـ توفي الخليفة عبد الملك بعد أن نصب ابنه الوليد، وتفاقم نفوذ الحجاج، وأصبح حاكما لمساحات شاسعة تمتد من العراق إلى شرق خراسان، وشهد البحر المتوسط معارك طاحنة بين الأسطول الإسلامي وأساطيل الروم. وفي هذا العام توفي بسر بن أرطاة أحد قادة معاوية الذي اشتهر بقسوته ودمويته؛ حيث قاد بعد حرب صفين ومهزلة التحكيم غارات وحشية، وارتكب مذابح مروعة، وكانت معه أوامر بقتل كل من يؤيد الإمام علي عليه السلام. وفي سنة ٨٧ هـ تم تنصيب عمر بن عبد العزيز حاكما على المدينة المنورة. وفي هذا العام تمت السيطرة على المغرب الأقصى، ورفع طارق بن زياد لواء الإسلام فوق ربوع «طنجة». وفي هذا العام أيضاً توفي عبيد الله بن عباس قائد جيش الإمام الحسن السبط والذي ارتكب الخيانة العظمى عندما قاد أكبر عملية هروب وتسلل من معسكر الخلافة إلى معسكر معاوية، وتسلّم على الفور نصف الرشوة البالغة مليون درهم، ومن المفارقات أن تقترن وفاته بوفاة بسر بن أرطاة الذي ذبح ابنيه في حضن أمهما بينما فرّ عبيد الله بن عباس تاركا اليمن تحت رحمة جلاد دموي. أما زوجته وهي أم الطفلين البريئين فقد أصيبت بالجنون[2]. وفي عام ٨٨ قام عمر بن عبد العزيز بتوسعة الحرم النبوي الطاهر، وأصبحت

١. الأعلام: ٦/٩٣، الطبري: ٦/ ٣٦٥، وكان كميل قد اشترك في ثورة ابن الأشعث، وقاد كتيبة القراء، واختفى بعد إخفاق الثورة.

٢. الطبري: ٥/ ١٣٩، الإصابة: ١/ ١٥٢، الأعلام: ٤/ ٣٤٩، البداية والنهاية: ٨/٩٠

مساحة المسجد مائتي ياردة في مائتين. وفي عام ٩٠ هـ تبادلت الدولة الإسلامية ودولة الروم شن الغارات، وفي هذا العام توفي الحسن المثنى بن الحسن السبط الذي سقط جريحا في معركة عاشوراء، ونجا من القتل بشفاعة أخواله الفزاريين وقد وجهت إليه اتهامات في عهد عبد الملك بالتحضير للثورة ومراسلة أهل العراق، ولكن حاكم المدينة فند تلك التقارير الكاذبة.

وفي عام ٩١ هـ بدأت الاستعدادات لفتح الأندلس، وعبرت البحر قوات محدودة لاختبار دفاعات العدو. وفي الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ نيسان سنة ٧١١م غادر طارق بن زياد ميناء طنجة على رأس جيش مؤلف من إثنى عشر ألف جندي من العرب والبربر تحمله سفن عربية وأخرى أجنبية استؤجرت من حاكم سبته. ومع خلافة الوليد بن عبد الملك ازدادت الأوضاع سوءا، وبلغ الفساد الإداري مراحل مؤسفة جدا حتى أن عمر بن عبد العزيز والي المدينة سُمع ذات يوم يقول بمرارة:

- الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وأخوه محمد باليمن[1]، وعثمان بن حيان بالحجاز، امتلأت الأرض والله جورا.

وشهد هذا العام بدء الفتوح الكبرى في الأندلس، واندفاع جيوش الإسلام الظافرة إلى مدينة طليطلة عاصمة الدولة القوطية. في عام ٩٣

١. كان محمد بن يوسف الثقفي واليا في اليمن منذ سنة ٨٠ هـ، وكان ظالما غشوما اشتهر بقسوته؛ جمع المجذومين بصنعاء وأراد إحراقهم، وأمر بجمع الحطب لذلك فمات قبل تنفيذ جريمته. ابن الأثير: ٥/ ٥٧-٦٧.



عُـزل عمر بـن عبد العزيز عن ولاية المدينة المنورة، وأسـندت إلى عثمان بـن حيان. وفـي القسـطنطينية حيث يصـادف العام الهجـري عام ٧١٢م وقـع انقلاب عسـكري أطاح بحكم جوسـتنيان ذهب ضحيتـه الإمبراطور وأفـراد أسـرته، وبمصرعـه زال حكم أسـرة هرقـل. وفي عام ٩٤ هـزت الزلازل الشام واستمرت أربعين يوما، وحولت أنطاكيا إلى خرائب.

رحيل السلام

وفـي المدينـة المنـورة فـي تلـك الليلـة الشـتائية القارسـة البـرد افتقد الفقـراء ذلك الرجل الذي يحمل تحت جنـح الليل الخبز والدفء.. لقد انتظـروا طـوال الليـل، ولكـن دون جدوى، وتمر السـاعات بطيئـة في ليلة تسـمرت فـي سـمائها النجـوم.. ولم تغمـض عيـون فـي المدينة...والرياح الباردة تجوس الأزقة.. تعوي وتولول وهي تطرق النوافذ والأبواب .. حتى إذا طلع الفجر.. سـكن كل شـيء.. وقد انطفأت النجـوم وانبعثت صرخة في قلب الغبش الرمادي. لقد رحل علي بن الحسين زين العابدين.. وعندها عرف الفقراء هوية الرجل الذي كان يجوس أزقة المدينة ليلا ويهب الفقراء الدفء والفرح والأمل.. ولما انثالت على جسده الطاهر المياه رأى الناس آثارا فسألوا ما هذا؟ أجاب حفيد له:

- لقد كان يحمل على ظهره جرابا كل ليلة فيطرق منازل الفقراء.

وبكـى النـاس بفجيعة ومـرارة.. لقـد رحل السـلام، فالمدينـة يلفها برد وظـلام.. وكانـت المدينـة تبكـي بصمـت.. تبكي لرحيـل الأشـياء الملونة

التـي لـم يبق منها سـوى أطيـاف تحلق في سـماء الذكريـات. ولم تمض سـوى أيـام حتى سـمع الناس نبأ اعتقال الفقيه سـعيد بـن جبير في مكة بناءً على أوامر من الحجاج، وسـيق مخفورا إلى واسط في العراق.. وهناك وقـف سـعيد أمـام جلاده وقفـة أدهشـت الذين حضـروا اللقاء وأدهشـت التاريخ، وعندما هوى رأس الشـهيد في بلاط الجلادين سـمع الحاضرون صرخة تنطلق من الرأس كان يهتف بصوت فصيح: الله أكبر، وقد اندهش الحجاج الذي كان ينتشـي لمنظر الدماء.. اندهش لسيل الدم المتدفق، التفت إلى طبيبه النصراني تياذوق متسائلاً.. قال طبيب الجلادين:

- إن كل الذيـن قتلتهـم كانـوا خائفيـن.. فيتجمـد الدم فـي عروقهم قبل أن يموتوا.. ماتوا قبل أن يقتلوا.

أما سعيد فلا.. إن قلبه ظل ينبض بنفس الطمأنينة.. أجل إنها طمأنينة الإنسـان المؤمـن، ومن يومها أصيب الحجـاج بلوثة في عقله، وكان يصرخ بهستيرية: ما لي ولسعيد بن جبير! ولم يلبث الحجاج بعد ذلك إلا يسيرا، وأصيـب بمـرض خطير جعله يتمنـى الموت من العـذاب، ومات الجلاد بعـد أن حكـم العـراق بالحديـد والنـار أكثـر من عشـرين سـنة، ووُجد في سـجونه ثلاثة وثلاثون ألف سـجين بينهم ستة عشـر ألف امرأة في ظروف مأساوية، وأخيرا مات جلاد العراق[1] وتنفس العراقيون الصعداء إلى حين.

١. ولد الحجاج سنة ٤٠ هـ، ودخل سلك الشرطة في الشام في حكومة عبد الملك وقد نصبه الخليفة قائدا على الجيوش الشامية التي تحركت لاسترداد الحجاز من عبدالله بن الزبير، فنجـح فـي مهمته، وعينـه عبد الملك حاكمـا على مكـة والمدينة والطائـف، وضم إليه حكـم العـراق إبان القلاقـل؛ فاتجه إلى العراق، وتمكن من إخمـاد الأنفاس؛ فحكم العراق



في مثل هذه الظروف السياسية العاصفة تصدى محمد بن علي بن الحسين إلى مسؤوليته في الإمامة وهو في السابعة والثلاثين من عمره. كل شيء كان يهتز، ولم تكن هناك من معايير راسخة؛ حيث التيارات الفكرية هي الأخرى تعصف بالأمة يمينا وشمالا، ولم تكن هناك مدرسة فكرية تستند إلى فكر عميق ينهل من معين صاف؛ من أجل ذلك سوف نرى نجل زين العابدين يشمّر عن ساعديه ليبقر العلم بقرا، فتتفجر ينابيع عذبة وتسيل أودية بقدر، وسوف يدعى الشاب بعد برهة بالباقر، وسيفاجأ سكان المدينة المنورة بالصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري ينقل إلى الأمام تحية من جده الرسول؛ تحية من عند الله مباركة طيبه[1].

عشرين سنة وامتلأت في عهده السجون، كما حول العراق إلى مسرح لعمليات دموية رهيبة، وقامت سياسته على الإرهاب والبطش بالمعارضة، وشغل العراق والعراقيين بحروب توسعية، ولم يشهد العراق حاكما بهذا المستوى من القسوة إلى أن ظهر صدام في سنة ١٩٧٩، وبدأ عصر المذابح المروعة والحروب المدمرة التي حوّلت العراق إلى خرائب وأنقاض، وسحق شخصية الشعب العراقي وكرامته، وقد فوجئ العالم بالمقابر الجماعية والتي إذا ما كشفت جميعا فأنها ستكشف عن مصير فجيع لأكثر من خمسة ملايين من رجال العراق ونسائه، وقد حكم صدام العراق بالحديد والنار زهاء عشرين سنة، وخلفت حروبه ومغامراته ومذابحه بحق الشعب العراقي ملايين اليتامى والأرامل، وما تزال مأساة العراق قائمة حتى الآن بالرغم من سقوط الطاغية الدكتاتور.

١. جاء في تاريخ بن عساكر ج ٥١: إن الإمام زين العابدين دخل علي جابر بن عبدالله الأنصاري فقال له جابر: من معك يا بن رسول الله؟ قال: معي ابني محمد، فأخذه جابر وضمه إليه وبكى ثم قال: اقترب أجلي، يا محمد! رسول الله ﷺ يقرؤك السلام، فسأله الإمام وما ذاك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول للحسين بن علي: يولد لابني هذا ابن يقال له: علي بن الحسين، وهو سيد العابدين إذا كان يوم القيامة ينادي مناد ليقم سيد العابدين فيقوم علي بن الحسين، ويولد لعلي بن الحسين ابن يقال له محمد إذا رأيته يا

أجل في غمرة تلك الظروف تصدى الإمام لقيادة طائفة مقهورة مطاردة مضطهدة كانت السيوف الأموية ومعتقلاتها تطحنها طحنا إضافة إلى مسؤوليته في ترشيد العالم الإسلامي وهو يموج بالأفكار الوافدة الغريبة لا يعرف المرء من أين أتت وكيف انتشرت.

صور الإسلام

وكان لجنوح النظام الأموي في الانفراد بالحكم، وتحوله إلى حكم وراثي فاسد، وانتهاجه طريقاً قومياً شوفينيا، الأثر في استياء الأقوام غير العربية التي تعرفت على صورة الإسلام من خلال ممارسات الحكام الأمويين العنصرية؛ فثورات البربر والحروب الضارية واشتعال الثورات في الشمال الأفريقي يعود إلى تعسف الولاة والحكم ومحاولاتهم إذلال الشعوب.

وبالرغم من الثورات العديدة التي قادها الخوارج فلم يكن لديهم برنامج إصلاحي واضح؛ بل تحولوا إلى عناصر تثير الشغب وزعزعة الأمن؛ وقد طبع التمرد والعصيان فرقهم العديدة بلا استثناء غير أنهم حصلوا على بعض التعاطف بسبب تصديهم للحكم الأموي وعدم رضوخهم للظلم والاضطهاد.

جابر فأقرئه مني السلام.. يا جابر اعلم أن المهدي من ولده، وأعلم يا جابر إن بقاءك بعده قليل. وهناك روايات تختلف في بعض التفاصيل لكنها جميعا تتفق على أن النبي ﷺ حمّل جابر الأنصاري رضي الله عنه مهمة إبلاغ حفيده تحية الإسلام المباركة لتضاف إلى معجزات النبي ﷺ، وقد حفظ الصحابي الوفي رسالة الرسول ﷺ أكثر من ستين عاما لم يساوره شكك في صدق ما وعد به النبي ﷺ.



لـم يسـجل التاريـخ للخـوارج أي امتـداد شـعبي بالرغـم مـن ثوراتهـم العديدة، لقد أَلِفوا كما يبدو حياة التمرد، وتشرذموا فكريا، ولم تكن لديهم أيـة أصالة في طريقـة تفكيرهم؛ فأصبحوا هدفا سـهلا للحكومات الأموية، ففي سنة ٥٦ - ٥٧ هـ تصدى عبيد الله بن زياد يوم كان حاكما على البصرة إلـى الخـوارج وألقى القبض على مجاميع كبيرة زجهم في السـجن متهما إياهم بالتآمر، ثم عرض عليهم أن يقتل بعضهم بعضا على أن يطلق سراح القاتلين، ونجح في تمرير خطته عليهم فسالت الدماء في الاقتتال وأطلق سـراح القاتليـن! وفـي هذا دلالـة على ما وصـل إليه الخوارج مـن انحطاط أخلاقـي إضافة إلى تخلفهم الفكري؛ فقد أعلنوا تكفيرهم للإمام علي عليه السلام ومعاويـة وعمـرو بـن العاص وأبي موسـى الأشـعري وأصحـاب الجمل من عائشـة إلى طلحة إلى الزبير بن العوام، كما أعلنوا أن مرتكب الكبيرة كافر أيضـا وهـو خالـد في النـار، وفيما يخـص آراءهم السياسـية فقد جـوزوا أن تكون الخلافة في غير قريش، وأن الإمامة ليست بالنص والتعيين بل أنه لا ضرورة للإمامة أبدا[1]. وقد حاور الإمام الباقر أحد أبرز زعمائهم وهو نافع بن الأزرق الذي قاد عدة ثورات، وتساءل الإمام بعد حديث طويل:

- قـل لهـذه المارقـة بـم اسـتحللتم فـراق أميـر المؤمنيـن عليه السلام وقـد سـفكتم دماءكـم بيـن يديه في طاعتـه والقربة إلـى الله في نصرته؟ وسيقولون لك: إنه قد حكّم في دين الله. فقل لهم: قد حكّم الله في شريعة نبيه رجلين من خلقه فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا

١. الملل والنحل: ١/ ١٥٨.

حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾[1]، وحكّم رسول الله صلى الله عليه وآله سعد بن معاذ في بني قريظة؛ فحكم فيهم بما أمضاه الله عزو جل، أوما علمتم أن أمير المؤمنين عليه السلام إنما أمر الحكمين أن يحكما بالقرآن ولا يتعديا، واشترط رد ما خالف القرآن من أحكام الرجال وقال: حين قالوا له: قد حكمت على نفسك من حكم عليك فقال عليه السلام: ما حكّمت مخلوقا وإنما حكمت كتاب الله.

فأين تجد المارقة تضليل من أمر الحكمين بالقرآن واشترط رد ما خالفه لولا ارتكابهم في بدعتهم البهتان.

وقد فوجئ نافع بهذه الأدلة التي تفند مواقف وآراء الخوارج وقال: هذا والله كلام ما مر بمسمعي قط، ولا خطر ببالي وهو الحق إن شاء الله»[2]. وسوف نرى الخوارج يتشرذمون أكثر فاكثر، ثم يتحولون إلى مجاميع من السلابين وقطاع الطرق!

الاتجاه الزبيري

أما الحزب الزبيري فلم يكن مؤهلا لا من الناحية الإدارية، ولا من الناحية الأخلاقية لأن يتصدى للحكم الأموي، فقد كشفت تجربته القصيرة في الحكم عن قسوة رهيبة؛ خاصة عندما نفّذ مصعب بن الزبير

١. النساء: ٣٥.

٢. روضة الواعظين: ١/ ٢٤٥.



مذبحة مروعة في حصار قصر الإمارة في الكوفة، فقتل في بضع ساعات سبعة آلاف من المحاصرين استسلموا بعد أن منحوا الأمان! ولم تكن ممارسات إخوة عبدالله بن الزبير في مكة بأسمى من مصعب.

وإلى جانب الحركات السياسية طفت على السطح تيارات فكرية، كان لها الأثر في التشويش الفكري؛ إضافة إلى تورط الجهاز الحاكم في تزييف أحاديث وإسنادها إلى النبي، وكان بعضها ينطوي على أفكار هدامة، راحت تفتك في ذهن الأمة وثقافتها بأبشع مما تفعله الجراثيم.

المرجئة

ظهر المرجئة بأفكارهم، وأسهموا في تعزيز الحكم الأموي من خلال أفكارهم وآرائهم، وهناك من الدلائل ما يؤكد أن الأمويين هم وراء ظهور المرجئة الذين يرفضون بشكل مثير أية معارضة للحكم مهما اقترف من الجرائم السياسية والثقافية ومهما ارتكب من مذابح إنسانية! ولذا نجد أن الملوك سواء كانوا أمويين أو عباسيين يرعون هذه الفرقة، ويقدمون لها مختلف أشكال الدعم[1]. وفي غمرة هذا الضياع الفكري يستطيع المرء

١. يقول شوقي ضيف: «إن أفكار المرجئة تخدم البيت الأموي الذي كان في رأي الشيعة وكثيرين من الأتقياء منحرفا عن الجادة الدينية، وينبغي أن يغيره المسلمون ويضعوا مكانه البيت العلوي، والمرجئة لم يكونوا يوافقونهم على هذا الرأي، لأنهم لا يريدون المفاضلة بين المسلمين ولا الحكم على أحد بتقوى أو غير تقوى؛ فالمسلم يكفي أن يكون مسلما، وليس من شأن أحد أن يحكم على عمله». التطور والتجديد في الشعر الأموي: ٥٠، وهم بذلك يرجئون كل شيء إلى يوم القيامة! وليس هناك أفضل من هذه الآراء لدى الملوك والحكومات؛ ولذا قال المأمون سابع خلفاء العباسيين: «الإرجاء دين

أن يتلمس وجود حركة هادفة في أعماق المجتمع، تلك هي حركة أهل البيت فبالرغم من بطش النظام الأموي ومطاردة شيعة آل النبي صلى الله عليه وآله إلا أن الولاء للائمة من آل محمد صلى الله عليه وآله ظل متجذراً في النفوس، واتخذ شكلا عقائديا راسخا منذ يوم عاشوراء؛ حيث ولد الضمير الإسلامي مع مصرع سيدنا الحسين عليه السلام فداء للإسلام والقرآن ومن أجل إنقاذ الأمة الإسلامية وتحرير الإنسان المسلم.

وأصبح للشيعة بعد واقعة كربلاء فكراً سياسياً واضحاً؛ هذا وقد امتزجت فكرة العدالة والحرية والكرامة الإنسانية بحركة أهل البيت، وأصبح العدل السياسي والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان وإلغاء كافة أشكال التمييز العنصري، شعارات كافح من أجل تحقيقها مذهب أهل البيت وقواعده الشعبية.

ومنذ وقت مبكر كانت العدالة الاقتصادية ورخاء الأمة مطلباً ارتبط بالشيعة منذ الجهاد الذي خاضه أبو ذر وصرخته المدوية: عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج شاهراً سيفه! أما التمييز العنصري فقد ظلت كلمات الإمام علي تتألق في ضمير الأجيال: «الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق». ولهذا وذاك اضطهد أئمة أهل البيت وحوصروا، وقد أجاب الإمام الباقر ذات مرة بمرارة عندما سئل: كيف أصبحت؟ فقال:

- أصحبت برسول الله خائفا وأصبح الناس كلهم آمنين.

الملوك» تاريخ بغداد لطيفور: ٦٨.

وقد أصبح التشيع لآل النبي من الاتهامات الخطيرة التي تُعرّض المسلم للمشاق وربما تودي بحياته، وقد فتحت عقيدة التقية نافذة للخلاص من مطاردة أجهزة الحكم والسلطة، وأعلن الإمام الباقر عليه السلام بكل شجاعة وإخلاص أن: «التقية ديني ودين آبائي، ولا إيمان لمن لا تقية له»[1]، وكان لهذه الفكرة القرآنية المشروعة دورا في إنقاذ أرواح آلاف الأبرياء، وكانت بمثابة طوق نجاة للمقهورين ودلالة واضحة على النضج في الفكر السياسي.

أفول القيم

غير أن الأعراض المرَضية بدأت تظهر في ملامح المجتمع الإسلامي، ولم تسلم المدينة المنورة مما أصاب العالم الإسلامي من مؤشرات على انحطاطه، فالمدينة المنورة استهدفت من قبل أجهزة الحكم، وأشيعت فيها ثقافة جديدة، وظهرت الحالة الغرائزية لتجر طبقات المجتمع المدني إلى الترف والاستغراق في الملذات، وأصبح الشباب الأموي رواد الميوعة والانحلال، فوجدوا من يقلدهم ويسير وراءهم، وظهرت أزياء رجالية فيها من الألوان الزاهية والنعومة ما يصعب تمييزها عن الزي النسوي[2]. وانتشر الغناء في المدينة وأصبح في طليعة مظاهرها الثقافية، وأصبح المغنون والمطربون طبقة ثرية. كما أصبح الجدل حول

١. وسائل الشيعة / كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢. الأغاني. ط دار الكتب: ١٣/٦

طبيعة الذات الإلهية أمرا عاديا جدا يجترئ عليه الكثيرون دون حياء أو وجل؛ فقد كان الإمام الباقر عليه السلام جالسا في فناء الكعبة عندما اتجه إليه أحدهم وسأله قائلاً:

- هل رأيت الله حيث عبدته.

فقال الإمام:

- ما كنت أعبد شيئاً لم أره.

- كيف رأيته؟

- لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرَك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بالآيات، منعوت بالعلامات، لا يجور في قضيته، بان من الأشياء وبانت الأشياء منه، ليس كمثله شيء، ذلك الله لا اله إلا هو.

ونهض الرجل وهو يقول:

- الله أعلم حيث يجعل رسالته. وقد نجم عن استغراق المجتمع الإسلامي في اللذائذ الحسية ردة فعل لدى الكثيرين، فجنحوا نحو التصوف بما يجسد موقفهم السلبي من الحياة ويفسر الزهد بالدنيا تفسيراً خاطئاً.

حوار في الشمس

كانت أمواج السراب تتلاطم في الأفق البعيد، وقد بدت بيوت المدينة

قوارب صغيرة تطفو وتغرق كطيوف باهته. كان ابن المنكدر[1] يمشي غير مكترث بشواظ الشمس وهي تلفح الوجوه والأشياء باللهب.. جسمه يتصبب عرقاً غزيراً تحت وطأة الظهيرة العظمى والمياه المالحة تفر من مسامات جلد معذب بالحر والصوف، غير أن ابن المنكدر لم يكن يعبأ بكل ذلك، وكانت تعتريه نشوة صوفية تأخذه بعيداً؛ فتهيم روحه في تلال من أضواء وهمية منتشياً بخمرة سماوية عجيبة! إنه لا يشعر بالسعادة كما الآن من ترك الدنيا لأهلها، ولاذ بعالم شفاف وندم على سنوات من عمره أمضاها في العمل والكدح في عالم يموج بالفتن، بالثورات المشتعلة كحرائق مجنونة أما الآن فهو سعيد.. روحه تسبح في تلال من نور، وأصبحت حياته أحلاما ملونه.. فجأة استيقظ من أحلامه عند ما وقعت عيناه على منظر مثير.. غمغم:

- أجل إنه بعينه أبو جعفر الرجل الذي بقر العلم، ولكن ماذا يفعل في هذه الظهيرة؟!

إنه مستغرق في عمله في بستان له، ولكن أليس من الأفضل أن يتفرغ وهو في هذه السن للعبادة ويدع الدنيا؟! حث خطاه إلى حيث يقف الإمام عند ساقية صغيرة كان الرجل القرشي الهاشمي يتصبب عرقا غزيرا وهو في شمس تتدفق لهبا: صرّ ابن المنكدر على أسنانه وقال بصوت مسموع:

- والله لأعظنه..

١. أحد الصوفيين ترك العمل وانصرف إلى العبادة.



قالها وقد وقف قبالته:

- أصلحك الله!

شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة على مثل هذه الحال في طلب الدنيا!! ألا تخشى أن يجيئك الموت وأنت على هذه الحال؟

أجاب الذي بقر العلم بقراً:

- والله لـو جاءني على هـذا الحال جاءني وأنا في طاعة من طاعات الله أكـفّ بها نفسـي عنـك وعن النـاس، وإنما أخـاف الموت إذا جاءني وأنا على معصية.

جفف ابن المنكدر جبينه الذي تصفد عرقا من الحر والخجل، أدرك فـي تلـك اللحظـة أن العمـل عبـادة.. طاعـة لله.. طريـق الحريـة والكرامـة الإنسانية. رفع رأسه وكان قد أطرق مليا وقال:

- رحمك الله أبا جعفر أردت أن أعظك فوعظتني.

وانصرف الرجل الصوفي فيما راح الإمام يبقر الأرض ويعلّم الإنسـان أن العمل والكدح محراب عبادة لا اسـتغراق في الدنيا.. هكذا قال جده من قبـل.. ما تـزال كلماته في القلوب المؤمنة. من أجل هـذا كان منهج الأمام هو احترام العمل والتشـجيع عليه قاطعا الطريق على أولئك الذين فسروا الزهد بأنه انسحاب من ميادين العمل إلى الكسل وقد سُمع الإمام يقول:

- الكسل يضر بالدين والدنيا.



وقال يحث بعض أبنائه ومن يؤمن به ورسالته:

- إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل شر، من كسل لم يؤد حقا، ومن ضجر لم يصبر على حق.

وقال ممجّداً العمل والعامل:

- من تسلح لطلب المعيشة والجد فيها خفت مؤونته ورخا باله ونعم عياله.

ودمج الجانب الأخلاقي بالحياة الاقتصادية فقال:

- بسعة الخلق تطيب المعيشة.

ويتأمل عليه السلام في زوايا عصره وما يجري حوله، فيرى أن وراء هذه الفوضى جهل مريع بالينابيع الصافية؛ حيث منشأ الأفكار الأولى التي غيرت وجه الدنيا، وجهل بالتاريخ الإسلامي؛ حيث كل شيء يكتبه السلطان بأقلام مأجورة؛ فيما وقائع التاريخ الإسلامي مودعة في ضمير السلف الصالح لا يستطيع نقلها إلا همسا من أجل هذا وذاك، شمّر عليه السلام عن ساعديه وراح يبقر حقول العلم، ويفجر ينابيعه لتسيل أودية بقدرها.. ومن أجل هذا سُمع عليه السلام يمجّد العلم والعلماء قائلاً:

- تعلموا العلم؛ فإن تعلُّمه جنة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه صدقه، وبذله لأهله قربه. والعلم منار الجنة، وأنس الوحشة، وصاحب في الغربة ورفيق في الخلوة، ودليل على السراء، وعون على الضراء وزين عند الأخلاء وسلاح



على الأعداء. يرفع الله به قوماً ليجعلهم في الخير أئمة، يقتدى بفعالهم وتقتص آثارهم»[1].

وسمع عليه السلام يقول:

- عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد.

واعتبر عليه السلام مجالس العلماء المتقين في طليعة منابع العلم ومصادره:

- لَمجلس أجلس إلى من أثق به أوثق في نفسي من عمل سنة[2].

هكذا يستحيل طلب العلم في جلسة واحدة إلى ما هو أفضل من عبادة سنة. وجعل من تذاكر العلم طريقاً إلى الآفاق الواسعة وإلى انفتاح ميادين جديدة:

- تذاكر العلم دراسة، والدراسة صلاة حسنة[3].

ودعا إلى نشر العلم، لأن العلم نور يطرد ظلمات الجهل، وزكاة العلم في نشره بين الناس:

- زكاة العلم أن تعلمه عباد الله.
- إن الذي تعلم العلم منكم له أجر مثل الذي يعلمه، وله الفضل عليه، تعلموا العلم من حملة العلم، وعلموه إخوانكم كما علمكم

---

١. تذكرة ابن حمدون: ٢٦

٢. أصول الكافي: ١/ ٣٤

٣. المصدر السابق.

العلمـاء. والعلـم في رأي الأمام خزائن وما الأسـئلة والتسـاؤلات إلا مفاتيح لاستخراج ما في تلك الخزائن من كنوز.

- العلم خزائن والمفاتيح السؤال فاسألوا.

والإمـام يدعو إلى تطبيـق المفاهيم العلمية في واقع السـلوك والحياة؛ لأن العلم بلا عمل ربما يتحول إلى خطر يهدد الكيان الإنساني:

- إذا سـمعتم العلم فاسـتعملوه فان العلم إذا كثر في قلب الرجل لا يحتمله قدر الشيطان عليه.

ونهـى عليه السلام عن المباهاة بطلب العلـم؛ لأن الهدف الحقيقي من طلب العلم هو الامتلاء، والامتلاء يؤدي إلى التواضع، كما السنابل المملوءة في الحقل تنحني؛ أما الفارغة فتراها منتصبة بغرور.

- مَـن طلـب العلم يباهي بـه العلماء أو يمـاري به السـفهاء فليتبوأ مقعده من النار[1].

ووضع عليه السلام معياراً رائعاً للعالم الحقيقي وهو معيار أخلاقي بحت:

- لا يكـون العبـد عالمـاً حتى لا يكون حاسـداً لمن فوقـه، ولا محتقراً لمن دونه[2].

١. المصدر نفسه: ١/ ٤٧، جامع السعادات: ١٠٦/١

٢. تحف العقول: ٢٩٤.



وصايا خالدة

وجمعته عليه السلام مع شيعته مناسبة، ورأى أن يعلن في تلك الجموع وصايا تكون ميراثاً تتناقله الأجيال:

- يا معشر شيعتنا! اسمعوا وافهموا وصايانا، وعهدنا إلى أوليائنا: أُصدقوا في حديثكم.. وبروا في أيمانكم لأوليائكم وأعدائكم.. وتواسوا بأموالكم.. وتحابوا بقلوبكم.. وتصدقوا على فقرائكم، وأجمعوا على أمركم.. ولا تدخلوا غشا ولا خيانة على أحد.. واستعينوا بالله، واصبروا؛ فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . وسكت لحظات ليقول:
- إن شيعتنا من إذا قال صدق.
- وإذا وعد وفي.. وإذا اؤتمن أدى.. وإذا سئل الواجب أعطى.. وإذا أمر بالحق فعل.. شيعتنا من لا يمدح لنا معيبا ولا يجالس لنا خائناً، إن لقي مؤمناً أكرمه، وإن لقي جاهلاً هجره. شيعتنا من لا يهر هرير الكلب، ولا يطمع طمع الغراب.. ولا يسأل أحدا إلا من إخوانه وإن مات جوعا.. شيعتنا من قال بقولنا، وفارق أحبته فينا، وأدنى البعداء في حبنا، وأبعد القرباء في بغضنا.

وكان رجل يصغي فقال بأسى:

- وأين يوجد هؤلاء؟

فقال عليه السلام وكأنه ينظر إلى الأجيال القادمة من مقهوري الأرض:

- في أطراف الأرضين أولئك الخفيض عيشهم، القررة أعينهم، إن شهدوا لم يعرفوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن مرضوا لم يعادوا، وإن خطبوا لم يزوجوا، وإن وردوا طريقا تنكبوا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً ويبيتون لربهم سجداً وقياماً.

ولكن الشيعة في عصره لم يكونوا كذلك كانوا مجرد شعارات فارغة أما العمل والسلوك والواقع الحياتي، فلم يكونوا أتباعا حقيقيين.. من أجل ذلك قال رجل ناقد:

- يا بن رسول الله؛ وكيف بالمتشيعين بألسنتهم وقلوبهم على خلاف ذلك.

فقال عليه السلام يستشرف المحن القادمة.. إنّ سنن التاريخ سوف تجري عليهم تغربلهم وتصهرهم في بوتقة الحقيقة والاستقامة والثبات على المبدأ والإخلاص للأهداف العليا:

- التمحيص يأتي عليهم بسنين تفنيهم وضغائن تبيدهم واختلاف يقتلهم.. فعليكم بالإقرار إذا حدثتم، وترك الخصومة فإنها تقصيكم.. وليس من عبد أكرم على الله من عبد شرد وطرد في الله حتى يلقى الله على ذلك. شيعتنا المنذرون في الأرض سرج وعلامات، ونور لمن طلب ما طلبوا وقادة لأهل طاعة الله، شهداء على من خالفهم ممن ادعى دعواهم، سكن لمن أتاهم، لطفاء بمن والاهم سمحاء، أعفاء، رحماء، فذلك صفتهم في

التوراة والإنجيل والقرآن العظيم.

وسأله سائل عن صفات الشيعي فقال:

- إن سُئِل أعطى، وإن دُعِيَ أجاب، وإن طلب أدرك، وإن نصر مظلوما أعز...[1]

وكان الجيل الأول من الشيعة خيار الناس جميعا لهم حضورهم القوي في ميادين الخير والعمل والصلاح؛ يقول عليه السلام:

- أولياؤنا، وشيعتنا فيما مضى خير من كانوا، إن كان إمام مسجد في الحي كان منهم، وإن كان مؤذن في القبيلة كان منهم، وإن كان صاحب وديعة كان منهم، وإن كان صاحب أمانه كان منهم، وإن كان عالم في الناس يقصدونه لدينهم ومصالح أمورهم كان منهم»[2].

وحدد عليه السلام دائرة أخلاقية هي الوحيدة التي تمنح المصداقية للشيعة؛ فقال:

- ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون إلا بالتواضع، وأداء الأمانة وكثرة ذكر الله، والصوم والصلاة والبر بالوالدين وتعهد الجيران من الفقراء وذوى المسكنة، والغارمين والأيتام وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكف الألسن عن الناس إلا من خير،

١. عيون الأخبار وفنون الآثار: ٢٢٣ - ٢٢٥.

٢. حياة الإمام محمد الباقر: ١/ ٢٤٩.

وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء[1].

وكان يشعر بالمسؤولية الأخلاقية إزاء الناس جميعاً، ولذا تراه يقول بمرارة وألم:

- بلية الناس علينا عظيمة؛ إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا، وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا[2].

نَجيب بني أمية

في سنة ٩٦ توفي الوليد بن عبد الملك الذي حاول خلع أخيه سليمان من ولاية العهد، وشجعه على ذلك الحجاج بن يوسف أقوى الولاة وأكثرهم نفوذاً، وقبل أن يوضع القرار موضع التنفيذ توفي بدير مران في غوطة دمشق، وما أن تربع سليمان على سدة الحكم حتى بدأ بإقالة جميع الولاة وتعيين ولاة جدد، وطالت تصفيات رموز العهد السابق قادة الفتوح وفي طليعتهم موسى بن نصير وطارق بن زياد اللذين تألق اسماهما في العمليات العسكرية التي أدت إلى فتح الأندلس، والقضاء نهائيا على مملكة القوط، وانطلاق الحضارة الإسلامية في تلك الربوع. ولم يتوقف مسلسل التصفيات عند هذين القائدين؛ بل تعداهما إلى عبد العزيز بن موسى بن نصير حاكم الأندلس المؤقت، فقد أصدر سليمان أوامر مشددة باغتياله، فقتل في مؤامرة وهو يصلي، وأرسل رأسه

١. تحف العقول: ٢٩٥.

٢. أعلام الورى: ٢٧.



إلـى دمشـق[1]. وفي الشـهور الأخيرة من القـرن الأول الهجري عمت الفرحة

١. موسى بن نصير: وهو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي اليماني- أبو عبد الرحمن- كان أبوه نصير على حرس معاوية بن أبي سفيان، فنشأ موسى بدمشق، ولما شب ولاه معاوية غزو البحر، فغزا قبرص وبنى حصونا، وكان معاوية قد غزاها سنة ٢٨ هـ ثم انتقضت فتولى موسى بن نصير غزوها. لما تولى الحجاج الثقفي أمارة العراق ولاه على خراج البصرة واختلف معه، فعاد إلى دمشق، ثم توجه إلى مصر. وفي سنة ٨٥ هـ ولاه عبد العزيز بن مروان، أمير مصر، على أفريقيا والمغرب خلفا لحسان بن النعمان الغساني، فأقام بالقيروان، ووجه حملة بحرية بقيادة عياش بن أخيل، فغزا صقلية وعاد بغنائم وفيرة، ثم اجتاح المغرب الأوسط، وأخضعه لطاعته. وفي عام ٨٧ استخلف ابنه عبدالله على القيروان وتوجه على رأس جيش كثيف من العرب والبربر الذين دخلوا في طاعته وأسلموا، فاجتاح المغرب الأقصى حتى بلغ السوس الأدنى، فخلف ابنه مروان ليستكمل فتحه، وتوجه إلى طنجة فافتتحها وولى عليها مولاه طارق بن زياد الليثي، وحاول فتح (سبتة) فلم يفلح لحصانتها، وصالحه حاكمها (جوليان) وحالفه وأغراه بفتح الأندلس، فاستأذن موسى الخليفة الوليد بن عبد الملك فأذن له واشترط عليه أن يخوض الأندلس بالسرايا ليختبرها، فجهز سرية من أربعمائة من المشاة ومائة من الفرسان بقيادة طريف بن مالك، فاجتازت البحر، ونزلت في المكان الذي أنشئت فيه - فيما بعد - مدينة (طريف). وشن طريف سلسلة من الغارات، وعاد بسريته ومعه غنائم كثيرة، واشتد عزم موسى على فتح الأندلس بعد نجاح تلك الحملة، وأعد لها مولاه طارق بن زياد، وجهز له جيشا عدته اثنا عشر ألف مقاتل من العرب والبربر، وأبحرت الحملة في ٥ رجب سنة ٩٢ (نيسان / أبريل سنة ٧١١ م)، في سفن عربية وأخرى أعدها (جوليان)، ونزلت الحملة على مرتفع جبلي يعرف بجبل (كالبى) وهو الذي دعي بعد ذلك بجبل طارق، وما زال يحمل هذا الاسم، ولما بلغ (روذريق Rodirguo) خبر هذا الجيش جمع قواته من القوط والرومان والتقى مع طارق بن زياد على ضفاف بحيرة (خنده) المتصلة بنهر (برباط) قرب مدينة (شذونه)، ونشبت معركة بين الفريقين في (٢٨ رمضان سنة ٩٢ يوليو / تموز سنة ٧١١ م) انتهت بهزيمة (روذريق) ودحر جيشه. أخبر طارق موسى بن نصير بهذا الفتح، وطلب إليه مددا ليتابع طريقه إلى (طليطلة) عاصمة القوط، فأذن له. استأذن موسى الخليفة الوليد بن عبد الملك بمتابعة الفتح، فأذن له فجهز موسى جيشاً ضخما عدته ثمانية

عليه السلام

عشر ألف مقاتل وعبر البحر في رمضان سنة ٩٣ هـ، ودخل الجزيرة الخضراء وفتح مدنا وحصونا، والتقى مع طارق بن زياد في طلبيرة قرب مدينة (طليطلة)، فوافاهما (روذريق) بجيش كبير ونشبت معركة ضارية، كانت حاسمة، وفيها قتل (روذريق) وسحق جيشه. من المؤرخين من جعل مقتل (روذريق) في المعركة الأولى التي جرت على بحيرة (خنده). ومهما يكن من أمر، فإن هذه الموقعة كانت فاصلة قضت على مقاومة القوط، وفتحت أبواب المدن أمام جيش المسلمين، وبعدها اتجه موسى غربا ففتح مدنا، وأراد أن يقتحم إقليم (جليقه) غير أن الوليد بن عبد الملك أمره بالعودة إلى دمشق، فتوقف عن فتح ذلك الإقليم وعاد إلى دمشق ومعه طارق بن زياد، واستخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز. ولما وصل إلى القيروان عيّن ابنه عبدالله على أفريقيا، وتوجه إلى مصر فدخلها ومعه ألوف الأسرى والسبايا، وكان عبد العزيز بن مروان- أمير مصر- قد مات، فواصل السير إلى دمشق، فدخلها سنة ٨٦ هـ والوليد في مرض موته، ولم يلبث أن مات وتولى الخلافة من بعده أخوه سليمان بن عبد الملك الذي نكب موسى وعزله، وانصرف إلى وادي القرى، حيث نشأ، وأقام في حالة بائسة إلى أن توفي، وكان له من العمر ٧٩ سنة. كان موسى شجاعا عاقلا، لم يهزم له جيش قط، وكانت سياسته في البلاد التي فتحها قائمة على احترام ديانة أهلها وحفظ أملاكهم وإبقائها في أيديهم ومنحهم الاستقلال الداخلي في إدارة أمورهم وتحكيم قضاتهم. الأعلام: ٨/ ٢٨٥، وفيات الأعلام: ٥/٣١٨، البيان المغرب: ١/ ٣٦ - ٣٩، ٢: ٤ -٢٣ ابن القوطية: ٣٥، فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم: ٢٧٦، الولاة والقضاء للكندي: ٦٠، الطبري: ٦/ ٤٦٩ ما بعدها، ابن الأثير: ٤/ ٣٥٩ وما بعدها، نفح الطيب: ١/ ٢٥٧، ٢٦٢ — ٢٨٧، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٩١ - ١٠٨. بالاستناد إلى أحداث التاريخ الإسلامي عبد السلام الترمانيني.

عبد العزيز بن موسى بن نصير: عيّنه أبوه على الأندلس عند عودته إلى الشام سنة ٩٥ هـ، فضبطها وسدد أمورها، وافتتح المدائن، وكان شجاعا عاقلا- تزوج (ايله) أو (ايجلونا) أرملة (روذريق) القائد القوطي وكناها بأم عاصم. اغتيل بتدبير بعض رؤساء الجيش في الأندلس، وهو يصلي، وأخذوا رأسه وأرسلوه إلى سليمان بن عبد الملك، وقيل إن اغتياله كان بإيعاز منه. رؤساء الجيش يولون عليهم أيوب بن حبيب اللخمي (ابن أخت موسى بن نصير)، وكانا أحد المشتركين بالاغتيال. استكمل عبد العزيز أثناء ولايته فتح غربي الأندلس (البرتغال حاليا)، ثم توجه إلى جنوب وجنوب شرق الأندلس، ففتح غرناطة

ومالقه وكوره تدمير (مرسية)، ثم اتجه إلى تنظيم البلاد وإدارة شؤونها وقضى على الثورات فيها - وله الفضل في تثبيت دعائم الإسلام في شبه جزيرة ايبريا (إسبانيا). الأعلام: ٤/ ١٤٥، الطبري وابن الأثير: حوادث سنة ٩٧، البيان المغرب: ٢/ ٣٥ - ٣٧، النجوم الزاهرة: ١/ ٢٣٢، نفح الطيب: ١/ ٢٦٣، ابن خلدون: ٤/ ٢٥٥، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١١٠ - ١١٥.

طارق بن زياد: هو طارق بن زياد الليثي بالولاء، أصله من سبي البربر، أسلم على يد موسى بن نصير فكان مولاه ومن أشهر رجاله. ولاه موسى على قرطاجة بعد أن تم فتحها سنة ٨٧ هـ، فأقام فيها إلى أوائل سنة ٩٢ هـ، ولما عزم موسى على فتح الأندلس جهز جيشا عدته اثنا عشر ألف رجل من العرب والبربر، وولى عليه طارق بن زياد، ووجهه لفتح الأندلس. عبر طارق المضيق بجيشه، تحمله مراكب عربية وأخرى أعدها له (جوليان) حاكم مدينة (سبتة)- وكان قد حالف موسى وطارقا - ونزل طارق بجيشه في رجب سنة ٩٢ على الجبل الذي يعرف اليوم بجبل طارق، واستولى عليه وفتح حصن (قرطاج)، وتغلغل في أرض الأندلس. لما سمع (روذريق) ملك القوط بنزول الجيش العربي في أرض الأندلس، أعد جيشا كثيفا في مدنية (شذونة)، والتقى مع جيش طارق على نهر (برباط) المتصل ببحيرة (لكه) وذلك في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة ١٩١٩٢ يوليو / تموز سنة ٧١١ م، وقد استمرت المعركة ثمانية أيام وانتهت بهزيمة (روذريق) وسحق جيشه، وكانت هذه الموقعة فتح الفتوح. وهنا تروي بعض المصادر أن (روذريق) قتل في هذه الموقعة، ويروي بعضها أنه اختفى واستطاع النجاة بنفسه وجمع فلول جيشه والتجأ إلى مدينة (ماردة)، وأنه كمن لجيش العرب في شعاب جبلية بين (ماردة) و(طليطلة). ثم إن طارقا استولى على عدة حصون، وتوجه شمالا نحو (طليطلة) عاصمة القوط، وكتب إلى موسى بن نصير أن يمده بمدد لمتابعة الفتح، فلحق به موسى بجيش عدته ثمانية عشر ألف مقاتل، وعبر البحر إلى الأندلس في سنة ٩٣ ، فاحتل (قرمونة) و(اشبيلية) وعددا من المدن بين نهر (الوادي الكبير) ونهر (آنه)، وحاصر (مارده)، وتراجع (روذريق) عنها وكمن لجيش موسى في شعاب جبلية بين (ماردة) و(طليطلة)، وفي الطريق الروماني الممتد بين (ماردة) و(سلمنقه) انقض (روذريق) بجيشه القوطي على جيش موسى وطارق في موقع قريب من بلدة (تمامس Tamames) ونهر (باربوس Barbalos) عند موضع يسميه بعض مؤرخي المسلمين (السواقي)، وكان اللقاء بين الجيشين في (سبتمبر / أيلول



المدينة المنورة بعد تسنم عمر بن عبد العزيز الخلافة، وبدأ عهده الجديد بإلغاء المراسم الظالمة في سب وشتم الإمام علي بن أبي طالب والتي سنها معاوية المنحط. وقد أرسل عمر تعميما إلى جميع حواضر العالم الإسلامي بإلغاء السب الذي استمر عقودا من الزمن، وأن يقرأ بدل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وفي هذا إقرار رسمي و إدانة للسياسة الأموية إزاء العلويين. وقد هز هذا الإجراء مشاعر الشاعر الكبير كثير عزة[1] فمدحه بقصيدة رائعة

سنة ٧١٣ م)، وفي هذه الموقعة هزم جيش القوط وقتل (روذريق)، قتله عبد العزيز بن موسى بن نصير، ودخل موسى وطارق مدينة (طليطلة) وأقام فيها إلى سنة ٩٤. ثم اتجه بجيشه غربا ففتح (سرقسطة) و(ساطبة) و(برشلونة)، واتجه طارق بن زياد شمالا إلى بلاد (البيشكنس) حتى وصل إلى جبال (البرانس). وكان موسى يهم بغزو (جليقه) لولا أن أتاه كتاب من الخليفة الوليد بن عبد الملك يأمره بالعودة إلى دمشق، فعاد إليها ومعه طارق بن زياد. وانتهى أمر طارق إلى إقالته بقرار من سليمان الذي لم يقدّر خدماته ومواهبه العسكرية. الأعلام: ٣/ ٣١٣. الطبري: ٦/ ٣٥٠. ابن خلدون: ٤/ ٢٥٣. فجر الأندلس: ٩٧.

١. هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي الأزدي- أبو صخر- شاعر متيم مشهور كان متيما بعزة بنت جميل الضمرية، وكان عفيفا في حبها. من أهل المدينة، كانت أكثر إقامته بمصر وفيها توفي. اختص بعبد الملك بن مروان وببني أمية وكانوا يكرمونه. كان متشيعاً شديد التعصب لآل أبي طالب، وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه، فإذا أراد أن يصدقه في شيء حلّفه بعلي. وكان يعتقد اعتقاد الكيسانية بإمامة محمد بن الحنيفة، ويذهب مذهبهم في القول بأنه حيّ بجبل رضوى بتهامة، وعن يمينه أسد وعن شماله نمر يحفظانه يأتيه رزقه غدوة وعشية، وفيه يقول كثير: ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء علي والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء.

فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء.

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء.



قال فيها:

وُلّيت فلم تشتم عليا ولم تخف بريا ولم تتبع مقالة مجرم.

تكلمت بالحق المبين وإنما تبيّن آيات الهدى بالتكلم.

وصفه عليه السلام: بـ«نَجيب بين أميه»[1]. وفي عهده تنفس العلويون الصعداء، وانتعشوا اقتصاديا بعد سنين عجاف من الحرمان واضطهاد الحكومات الأموية المتعاقبة.

تغيب لا يرى فيهم زماناً برضوى عنده عسل وماء.

قال المرزباني: كان كثير شاعر أهل الحجاز في الإسلام، لا يقدمون عليه أحدا. جعله ابن سلام في الطبقة الأولى من شعراء الإسلام وقرن به جريرا والفرزدق. سمي كثيرا لقصره. ماتت عزة بمصر أيام مروان بن عبد العزيز- أمير مصر- وزار كثير قبرها، وتغير شعره بعدها، فقيل له: ما بال شعرك، وقد قصرت فيه؟ فقال: ماتت عزة فلا أطرب، وذهب الشباب فلا أعجب، ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب، وإنما ينشأ الشعر عن هذه الخلال. وكان إذا أتى مصر أكرمه عبد العزيز بن مروان وجاد عليه. مات وله من العمر ستون سنة. من قوله في عزه: ألا تلك عزة قد أصبحت تقلب للهجر طرفاً غضيضاً.

تقول مرضنا فما عدتنا وكيف يعود مريض مريضاً؟

وفيها يقول:

نظرت إليها نظرة وهي عاتق مجوب، ولما يلبس الدرع ريدها من الخفرات البيض ود جليسها إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها.

الأعلام: ٦/ ٧٢، الأغاني: ١\٩ وما بعدها: ١٢/ ١١٣ و١٢/ ١٧٤، وفيات الأعيان: ٤\١٠٦، شذرات الذهب: ١/ ١٣١، عيون الأخبار: ٢/ ١٤٤، مقالات الإسلاميين: ٩٠-٩١، الملل والنحل: ١٥٠، بروكلمان: ١/ ١٩٥.

١. جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء: ٢٣٠.



الرسالة

ووصلت رسالة من الخليفة يتمنى فيها زيارته، فاستجاب الإمام وتم اللقاء في دمشق. وقد استُقبل الأمام بحفاوة، وجرت بعض الأحاديث الودية خلال أيام الضيافة. وفي لقاء التوديع قال الخليفة بأدب:

- أوصني.

فقال الإمام:

- أوصيك بتقوى الله، وأن تتخذ الكبير أبا والصغير ولدا والرجل أخا.

فقال الخليفة بإعجاب:

- جمعت والله لنا ما إن أخذنا به، وأعاننا الله عليه استقام لنا الخير إن شاء الله.

وبعد شهور قام الخليفة بزيارة للمدينة المنورة، وصدر إعلان إبان الزيارة باستئناف الأحكام الظالمة، وتدفق المتظلّمون والذين صدرت بحقهم أحكام جائرة وأصحاب الأراضي المصادرة. وألقى الأمام كلمة رائعة جاء فيها:

- إنما الدنيا سوق من الأسواق يبتاع فيها الناس ما ينفعهم وما يضرهم؛ وكم قوم ابتاعوا ما ضرهم، فلم يصبحوا حتى أتاهم الموت؛ فخرجوا من الدنيا ملومين، لما لم يأخذوا ما ينفعهم في

الآخرة، فقسم ما جمعوا لمن لم يحمدهم وأووا إلى من لا يعذرهم. فنحن والله حقيقون أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نتخوف عليهم منها فنكف عنها.

والتفت الإمام إلى الخليفة الذي كان يصغي بكل وجوده وقال:

- واتق الله، واجعل في نفسك اثنتين، إلى ما تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فقدِّمه بين يديك، وانظر إلى ما تكره معك إذا قدمت على ربك؛ فارمه وراءك. وافتح الأبواب، وسهل الحجاب، أنصف المظلوم، ورد الظالم، ووجّهَ خطابه إلى عموم المجتمع قائلاً:
- ثلاثة من كن فيه استكمل الإيمان بالله: من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له.

وكان الخليفة ينتظر أن يرفع الإمام إليه استئناف الحكم الجائر الذي صودرت جرّاءه أرض فدك.. ولكن الإمام أعرض عن إثارة هذه المشكلة، وربما كان يقدّر ظروف الخليفة الجديد، وما قد يؤدي ذلك في إحراجه؛ خاصة وأن الأمويين لن يتساهلوا في هذه المسألة. كما أن فدك أصبحت ملكا للدولة تتصرف فيه وفق ما تشاء، وأصبحت فدك جزءا من أموال الخليفة عثمان، فقدمها على طبق من ذهب إلى مروان، وأورثها مروان إلى عبد العزيز فورثها ابنه عمر! وجلس الإمام بعد تلك الكلمة المؤثرة وأطرق كعادته وكان الناس ينظرون إلى وجه أسمر وقد سمع من كثير



من الصحابة أن محمد بن علي يشبه رسول الله في ملامحه[1] كان عليه السلام معتدل القامة أسمر اللون[2]، وكان رقيق البشرة له خال، حسن الصوت مطرق الرأس[3]. وانتشرت قصة الصحابي جابر الأنصاري معه عليه السلام عندما دخل عليه المسجد ونقل له تحيات النبي صلى الله عليه وآله وقد بقر بطن العلم بقرا[4].

بداية قرن جديد

وأطل القرن الثاني الهجري والعالم الإسلامي يستنشق بعض الحرية، وينعم بقدر من الأمن والسلام؛ لقد أوقف عمر بن العزيز كثيرا من الولاة عند حدودهم، وسيق يزيد بن المهلب إلى المحاكمة بعد أن نهب من مقدرات الأمة، وزج في السجن إلى أن يعيد ما سرقه من أموال الناس وممتلكاتهم. وفي هذا العام وهو ١٠٠ دعا الخليفة الخوارج إلى المناظرة والحوار، فاستجابوا وأرسل زعيمهم وفدا إلى دمشق؛ وقد استطاع عمر إقناعهم، لكن الوفد أشكل عليه إقراره بالخلافة ليزيد بن عبد الملك من بعده وهو إجراء غير شرعي، وقد وعد عمر بن العزيز في دراسة الموضوع[5].

---

١. أصول الكافي.

٢. أخبار الدول: ١١١.

٣. أعيان الشيعة.

٤. مجمع الزوائد: ١/ ٢٢.

٥. وقد شعر الأمويون بالخطر إذا ما أقدم عمر بن العزيز على إلغاء ولاية العهد وترك مسألة الخلافة شورى بين المسلمين ينتخبون من شاءوا أو تعيين شخص غير أموي فتآمروا عليه فاغتيل مسموما.

وفي تلك الفترة سخنت الجبهة من الروم من جديد، واندفعت الفرق العسكرية الإسلامية في الأراضي الرومية بعد انصرام فصل الشتاء القارس البرد، كما قامت القوات الإسلامية بحملات تأديبية للخزر بعد شنهم غارة على المناطق الحدودية في أذربيجان، وكان المسلمون يشددون الحصار على عاصمة الروم القسطنطينية مصدر القلق المستمر، وانعدام الأمن في المناطق الحدودية، ولكن الروم استنجدوا بالبلغار لفك الحصار، وتصل الأنباء إلى الخليفة فيأمر بإنهاء الحصار وانسحاب الأسطول الإسلامي إلى قواعده في سواحل الشام؛ ولكن الأسطول يتعرض لعاصفة مدمرة وهو ما يزال في بحر إيجة قبال السواحل اليونانية أدت إلى تحطيمه[1].

وفي هذا العام قام الخليفة بإصلاحات في جهاز القضاء العراقي بعد تعيينه الشعبي قاضياً في الكوفة وأياس بن معاوية في البصرة، كما قام الخليفة بتوسعة الحرم النبوي الشريف، وحاول استخدام وسائل غير عسكرية في الدعوة إلى الإسلام، فنجح في إقناع ملوك السند باعتناق الدين السلامي الحنيف، وظلوا في مناصبهم وتسموا بأسماء عربية. وفي هذا العام توفي الصحابي الجليل عامر بن واثلة في مكة المكرمة[2]. وفي

١. وهي آخر محاولة للاستيلاء على القسطنطينية في العهد الأموي، ولم يظهر المسلمون بعدها أمام أسوار القسطنطينية إلا في عهد هارون الرشيد الذي حاول فتحها فأخفق وذلك سنة ١٦٥ هـ ٧٨١ م. ولم تفتح القسطنطينية إلا في عهد السلطان العثماني محمد والذي لقب إثرها بالفاتح.

٢. عامر بن واثلة بن عبدالله بن عمرو الليثي الكناني القرشي، كنيته أبو الطفيل شاعر كنانة



رجب من سنة ١٠١ هـ توفي عمر بن عبد العزيز متأثراً بالسم الذي دس إليه، وترك وراءه ذكرا حسنا بالرغم من حكمه القصير؛ حيث لم يتعد الثلاثين شهرا فقط. وانتقلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك الذي أمر باعتماد السياسة السابقة، ولم يرق ذلك للأمويين فأحضروا أربعين شيخاً متلبساً بزي العلماء وشهدوا وأقسموا لديه بأنه ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب!! فعدل عن سياسة سلفه وبدأ عهدا مؤسفا اتسم بالطغيان والعنف والفساد وصدر عنه مرسوم بعد أربعين يوما من تسلمه الخلافة جاء فيه:

- أما بعد فان عمر بن عبد العزيز كان مغرورا، فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى.. أخصبوا أم أجدبوا

وأحد فرسانها ومن ذوي السيادة فيها، أدرك النبي ﷺ وروى عنه تسعة أحاديث. حمل راية على بن أبي طالب في بعض وقائعه، وكان مع حبه لعلي يعترف بفضل الشيخين (أبى بكر وعمر) غير أنه يقدم عليا عليهما. كتب إليه معاوية يلاطفه ويدعوه، فلما قدم إليه أكرمه، وفي يوم قال له: كيف وُجدك على خليلك أبي الحسن (يريد علي بن أبي طالب)؟ قال: كوجد أم موسى على موسى، وأشكو إلى الله التقصير. قال له معاوية كنت فيمن حصر عثمان؟ قال: لا، ولكني كنت فيمن حضر، قال: فما منعك من نصرته؟ قال: وما منعك أنت من نصرته إذ تربصت به المنون، وكنت مع أهل الشام، وكلهم تابع لك فيما تريد؟ فقال له معاوية: أوما ترى طلبي لدمه نصرة له؟ قال: بلى، ولكن كنت كما قال القائل: لا ألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي.

التحق بعد ذلك بالمختار الثقفي في ثورته على بني أمية في العراق مطالبا بدم الحسين، ولما قتل المختار انزوى عامر إلى أن خرج مع ابن الأشعث وعاش بعد ذلك إلى أيام عمر بن عبد العزيز، وتوفي في مكة، وقيل إنه آخر من توفي من الصحابة. الأعلام: ٤/٢٦، الأغاني: ١٣ / ١٥٩، تهذيب التهذيب: ٥/ ٨٢، طبقات ابن سعد: ٥/ ٤٥٧، الإصابة ٤/ ١٦٩٦.

أحبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا...[1].

وعاد الظلم كأبشع ما يكون وعم الطغيان؛ أما هو فانصرف إلى مغامراته ولياليه الحمراء، وهام بحب مطربة فاتنة تدعي حبابة، وأصبح لها نفوذ سياسي كبير وقد طلبت منه مرة عزل أخيه مسلم بن عبد الملك عن حكم العراق وخراسان وإسناد الحكم إلى عمر بن هبيرة[2]. وفي غمرة هذه الظروف بدأ تنظيم العباسيين بالتشكل وانطلاق دعاة الحركة السرية إلى الشرق وبالتحديد إلى خراسان وكانت الحميمة مركز الحركة[3] وتزامن ذلك مع فرار يزيد بن المهلب من السجن وتمكنه من إشعال ثورة في البصرة، ولكن الثورة سرعان ما أخمدت وفر آل المهلب من البصرة عن طريق البحر متجهين إلى «السند»، وأخفقت محاولتهم وألقي القبض عليهم حيث أعدموا في دمشق. عرف يزيد بن عبد الملك بجهله الشديد، ولهذا كان يحتقر العلماء، كان يطلق على الحسن البصري؛ الشيخ الجاهل! سكر يوما مع عشيقته حبابه لكثرة ما شرب فراح يصيح دعوني أطير، وراحت مغنيته الفاتنة تسخر منه فقالت له:

- على من تدع الأمة؟!

صاح وهو يترنح يحاول الطيران:

---

١. العقد الفريد: ٣/ ١٨٠.

٢. أعلام والنساء: ١/ ٢٣٢.

٣. قرية خارج المدينة هي من ممتلكات العباسيين في العهد الأموي.

- عليك[1].

أما وفاته فقد كان يقوم برحلة ترفيهية مع مطربته الأثيرة، وراح يلعب معها ويرميها بحبات العنب فتأكلها، وشاء القدر أن تشرق بحبة عنب مرضت أثرها وتوفيت.. وعندما أرادوا دفنها رفض ذلك وظل ثلاثة أيام مرابطا عند جثة هامدة إلى أن نتنت وهو مع ذلك يشمها ويقبلها ويبكي، وتحدث معه بعض مسؤولي القصر فسمح بدفنها ثم عاد بعدة أيام فنبش القبر ولم يعش بعدها سوى مدة قصيرة ومات!![2].

الأحول

في ٢٥ شوال ١٠٥ هـ تربع هشام بن عبد الملك على الخلافة والملك، وصفه الفرزدق قبل سنين من خلافته في حادثة الحرم المكي المعروفة قائلاً:

- يقلب رأسا لم يكن رأس سيد.

وعين له حولاء باد عيوبها.

وتصور إنساناً بخيلاً جداً طالما كان يردد جملته وكأنها حكمة: ضع الدرهم على الدرهم يكون مالا[3].

---

١. تاريخ ابن الأثير: ٤/١٩١

٢. الأنافة في مآثر الخلافة: ٤/ ١٤٦.

٣. البخلاء: ١٠٥.

ولهذا راح يجمع الدراهم والدنانير بشراسة، فجمع من المال ما لم يجمعه خليفة من قبله[1]، ولم يشعر بالندم على شيء سوى هبة المال، فكان يقول: إن الخلافة تحتاج إلى الأموال كاحتياج المريض إلى الدواء. جمع إلى بخله الشديد الظلم والقسوة وطول اللسان[2].

في عام ١٠٦ هـ قام هشام برحلة الحج وكان الإمام الباقر قد حج في نفس العام، كان عليه السلام قد بلغ الخمسين من عمره وقد اصطحب معه ابنه جعفر وله من العمر يومئذ سبعا وعشرين سنة، وفي إحدى مناسبات الحج وقف ابن الإمام خطيباً، وجاء في جانب من خطابه: الحمد لله الذي بعث محمدا بالحق نبيا وأكرمنا به، فنحن صفوة الله على خلقه، وخيرته من عباده، فالسعيد من تبعنا، والشقي من عادانا وخالفنا.. ويعد هذا الإعلان خطيراً جداً سيما وأن الخليفة الأموي حاضر في مراسم الحج، وأخوه مسلمة من الذين كانوا حاضرين أثناء الخطاب. وعلى الفور قام مسلمة بإحاطة هشام بتفاصيل الحادث، فأسرها هشام في نفسه ولم يقدم على خطوة، ولكنه أوعز إلى حاكم المدينة[3] ومكة بإرسال الإمام الباقر وابنه جعفر إلى دمشق بعد انتهاء موسم الحج وعودتهما إلى الديار. وفي صيف هذا العام حدث توغل إسلامي في أراضي الروم، كما حدث

١. أخبار الدول: ٢/ ٢٠٠.

٢. تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٣٩٣

٣. كان حاكمها يومئذ إبراهيم ابن هشام المخزومي خال الخليفة هشام وقد نصبه على حكم المدينة ومكة قبل حوالي سنة، أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب الستين: ٦٨٧/١



تقدم في الجبهة على إقليم خراسان ضد الممالك التركية، وشهد البحر الأبيض المتوسط تقدم سفن حربية إسلامية نحو جزيرتي «سردينيا» و«كوستريكا».

المواجهة

ربما استعادت ذاكرة هشام حادثة قديمة يوم ذهب إلى حج بيت الله، ولما أراد استلام الحجر الأسود عجز عن ذلك، فوضع له كرسي في ناحية من الحرم، ألقى بنفسه على الكرسي ينظر إلى الأمواج البشرية وشعر بأنه ليس شيئا مذكورا، لم يكن يأبه له أحد.. وفيما هو يتأمل المشهد أقبل رجل قد اجتاز الخمسين من عمره، كان وجهه يضيء كقمر بين الغيوم.. وحدث أمر عجيب.. تناثرت أسئلة، وارتسمت على الوجوه علامات استفهام.. تساءل رجل شامي وهو يتطلع إلى رجل يرفل بحلته البيضاء الناصعة نصاعة القمم الشامية، هتف مأخوذاً:

- من هذا الرجل الذي ينفرج له الناس كملك عظيم؟!

وهتف آخرون:

- انظروا!! إنه يشق طريقه بيسر إلى الحجر الأسود.

قبّل الرجل ذو الوجه المشرق الحجر الأسود، واستأنفت الأمواج البشرية تدافعها من جديد. التفت الرجل الشامي إلى هشام قائلاً:

- من هذا؟!



رد الأحول بغيظ:

- لا أدري.

وحده القدر يفسر مرور الشعراء في لحظات يتوقف عندها التاريخ بإجلال. هتف الفرزدق:

- ولكني أدري من هو.

تساءل الشامي بشوق:

- ومن هو يا أبا فراس؟

وتدفقت ينابيع الشعر وراح الفرزدق ينشد بصوت مؤثر:

- هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم

هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله

بجده أنبياء الله قد ختموا

إذا رأته قريش قال قائلها

إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

يكاد يمسكه عرفان راحته



ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

وليس قولك من هذا بضائره

العرب تعرف من أنكرت والعجم.

واستشاط هشام غيظاً وحقداً، وما أسرع أن تخطفت أيدي الجلاوزة شاعرا نفث الروح القدس على لسانه، وسيق الشاعر مخفورا إلى سجن بعسفان بين مكة والمدينة.

هذا زمن مصنوع من خشب ونحاس.

زمن لا يعرف للكلمة الحرة حرمتها..

زمن غابت فيه الآيات وراء القبضان.

حادثه كهذه لا يمكن أن تسقط من الذاكرة.. من أجل هذا أراد هشام الانتقام من زين العابدين بابنه وحفيده. ربما يكون العلويون في الحجاز نجوما، وفي المدينة أقمارا، ولكنهم في الشام أحفاد أبي تراب، عدوهم القديم الذي حاربه آباؤهم وأجدادهم بصفين.. وكيف ينسونه وهم ما زالوا على عاداتهم في لعنه عند كل قنوت في الصلاة..؟! لقد ألغى عمر بن العزيز سبه من فوق المنابر .. في الخطب فكيف يصنع مع أجيال تربت على ذلك ونشأت على السب والشتم وشابت عليه؟! من أجل هذا رأى هشام بعينه الحولاء أن وجودهما وحيدين في الشام سوف يكسر شوكتهما.. إنه في عاصمة ملكه.. يستطيع أن يفعل ما يشاء.



سهام علي

وذهبا يطويان المسافات الطويلة إلى دمشق، وأراد هشام أن يريهما كنوزه من الذهب والفضة ويقول لهما بأنه أوتي ملكاً عظيماً. مرت ثلاثة أيام على وصولهما دمشق، وكان هشام لا يسمح بدخول القصر، وابتسم بمكر وهو يفكر بما أعد لغريمه. كان هشام متربعا على سرير الملك، وفي حضرته علّية القوم وقادة الجيوش، وفي يد كل منهم قوس وهم يرشون سهامهم نحو هدف في آخر البلاط. ودخل عليه السلام وخلفه ابنه يمشي.. صاح هشام بلهجة يعوزها الأدب:

- يا محمد ارم مع أشياخ قومك.

أجاب أبو جعفر وهو يدرك ما يرمي إليه:

- إني قد كبرت عن الرمي فاعفني.

حانت لحظة الانتقام.. سوف يجعل من شيخ العلويين نادرة يتندر بها.. عندما تطيش سهامه هنا وهناك وسط قهقهة الآخرين.

هتف منتشياً:

- كلا لابد أن تشارك قومك في الرمي!

وخاطب هشام بغلظة أحد الرماة:

- أعطه قوسك.

امسك أبو جعفر بالقوس ووضع سهما في كبده ورمق الهدف بنظرة

ثابتـه وحانت لحظة الانطلاق؛ هتف أحدهم مبهورا وهو يرى السـهم نابتا في مركز الهدف. أخذ أبو جعفر سهما آخر وسدد باتجاه الهدف، فأصاب بـه نصـل السـهم الأول.. وراحت السـهام العلوية يتبع بعضهـا بعضا حتى شق تسعة أسهم.. نسي هشام كل أحقاده أمام مشهد أخاذ.. رأى كل شيء يتهاوى أمام سهام رجل من قريش.. هتف الأحول مأخوذا بما يرى:

- أجـدت يـا أبا جعفر.. أنت أرمى العرب والعجم.. وانتبه إلى نفسـه ماذا يفعل؟!

لقد أحضره مع ابنه لينكّل به.. ليقلل من شأنه.. ليجعل منه أضحوكة أمام الآخرين.. وها هو يمجده. شـعر بشـيء من النـدم، وأطرق إلى الأرض يفكر، وطال السـكوت.. شعر الأمام بالغضب من هذه المعاملة وراح ينظر إلى السـماء، وكان عليه السلام إذا غضب نظر إلى السـماء. تدارك هشـام الموقف فنهض من على سرير ملكه العريض وقاد الإمام ليجلس مبالغة في إكرامه وتقديره وقال:

- يا محمد لا تزال قريش تسود العرب والعجم ما دام فيهم مثلك. لله درك.. من علّمك هذا الرمي؟ وفي كم تعلمته؟

أجاب أبو جعفر بأدب الأنبياء:

- علمته أيام حداثتي ثم تركته.

تساءل هشام وقد انتبه إلى وجود جعفر:

- ما أظن أن في الأرض أحدا يرمي مثل هذا الرمي.



وسكت هنيئة ليقول:

- أيرمي جعفر مثل رميك؟

أجاب أبو جعفر وهو يسدد سهما من نوع آخر:

- نحن أهل بيت نتوارث الكمال والتمام اللذين أنزلهما على نبيه في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. وشعر هشام بالكلمات تلسعه لسعا فقال بغيظ مكبوت:

- من أين ورثتم هذا العلم ولستم أنبياء؟! قال عليه السلام بلهجة فيها نوع من التحدي:

- ورثناه عن جدنا وقد قال: «علمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح من كل باب ألف باب».

وسكت هشام على مضض وقد بدا مستسلما تماما.. واجتاحته آلاف الشكوك والهواجس.. إنه ليس أمام رجل أعزل كما كان يتصور، وقفزت إلى ذهنه بعض التقارير التي تحذر من حركة مسلحة قد يقوم بها أخوه زيد[1]. وعندما جثم الصمت على المكان نهض الإمام عليه السلام، ونهض أثره هشام يودعه فيما كان أشياخ القوم ما يزالون متحلقين حول مشهد السهام

١. سئل الإمام الباقر عليه السلام: أي إخوانك أحب إليك؟ قال: أما عبد الله فيدي التي أبطش بها، وأما عمر فبصري الذي أبصر به، وأما زيد فلساني الذي أنطق به، وأما الحسين فحليم يمشي على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، سفينة البحار: ٢٧٣/٢



النابتة في نصل بعضها البعض!

زيد

كان الإمام الباقر عليه السلام في العشرينات عندما ولد أخوه زيد، إنه يتذكر جيدا كيف تفاءل والده بالقرآن عندما بشر بولادته.. فتح المصحف فخرجت آية مباركة تبشره وتعزيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[1]، وأطبق المصحف ليفتحه ثانية فإذا آية أخرى تخاطبه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2]، وأطبق المصحف ليفتحه ثالثة فإذا هي آية الثورة والجهاد ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾[3]. هنالك قال الوالد بلهجة فيها فرح وحزن:

- عُزيت عن هذا المولود وإنه لمن الشهداء.

وحمل زيد الكتاب بقوة حتى عرف في المدينة المنورة بحليف القرآن.. وفيما كان شباب المدينة منصرفين إلى البحث عن الملذات كان زيد ينوء بحمل المسؤولية، ينظر إلى العالم من حوله يعج بالشرور. وكان أخوه الباقر يحبه غاية الحب ويحترمه ويقدر فيه روحه الأبية وشجاعته، وكيف لا يكون ذلك وقد تشرّب زيد آيات القرآن؟! قال له مرة:

---

١. التوبة: الآية ١١١

٢. آل عمران: ١٦٩

٣. النساء: ٩٥

- لقد أنجبت أم ولدتك يا زيد، اللهم اشدد أزري بزيد.

وكان يعرف أن زيدا يعيش هاجس الثورة على الظلم؛ فما تزال كربلاء تتوهج في ضمير الجيل.. من أجل هذا قال عليه السلام في مجلسٍ ضم أقرب الأصدقاء وهو يضع كفه على كتف زيد:

- هذا سيد بني هاشم.. إذا دعاكم فأجيبوه، وإذا استنصركم فانصروه[1].

الذين يعرفون زيدا يدركون آلامه التي هي آلام كل الناس الطيبين في زمن نحاسي يسحق بلا رحمةٍ الفقراء والبسطاء، والذين يعرفونه جيدا يعرفون أن وراء هذه الملامح الهادئة براكين تتفجر غضبا ضد الظلم والظالمين. شيء واحد كان يميز زيدا عن غيره هو أنه لا يرى للحياة معنى إذا كان ثمنها الذل.. أراد أن يعيش حرا في زمن يصلب الأحرار.. يبحث عن دفء في عصر الزمهرير.. والذين يعرفون زيداً ويعرفون هشاماً أدركوا أنه لا بد من الصدام يوما ما. والذين شاهدوه كيف يبكي وهو يرى امرأة عجوزا تتبع بعيرا مسافات طويلة تلتقط ما يساقط من التمر تقوت به صبايا يتضورن من الجوع.. اختطفت الحروب التوسعية أباهم. والذين سمعوه يخاطب تلك المرأة البائسة قائلاً:

- أنت وأمثالك سيخرجونني غدا، ويسفكون دمي. هل سمعته تلك المرأة؟! وهل أدركت ما يرمي إليه..؟! هل تعي تلك البائسة

١. عمدة الطالب: ٢/ ١٢٧.

مـا يجـري حولها؟! وهل سـمعت بأنباء الخيول العربيـة وهي تغير علـى شـواطئ بحر الخـزر مـن أرمينيا إلـى طبرسـتان، وتتوغل في بـلاد مـا وراء النهـر حتى تصل إلى فرغانه؟ وهل سـمعت بالسـفن الحربيـة تفتتح «سرقوسـة» في جزيرة صقليا..؟ وهـل حدثها أحد عن سـيل الغنائم يتدفق إلى قصر جاثم في دمشـق يحكمه رجل أحـول..؟ وإذا لـم تسـمع تلـك البائسـة بهـذا وذاك فإنهـا تحفـظ كلمات يتوارثها سكان الكوفة عن رجل كان يحكم الشرق الأوسط ذات يـوم ولم يكن يملك إلا مـا يملكه الفقراء..؟ أجل تعرفه جيداً إنه علي بن أبي طالب الذي قال: ما جاع فقير إلا بما متع بن غني.

ثمن الكرامة

وحـدث ما توقعـه كثيرون؛ فقد طلب هشـام من حاكـم المدينة ومكة أن يرسـل إليه زيداً. أراد هشـام أن يحط من شـأنه أن يقمعه بعد أن وصلته تقارير تتحدث عن تذمره ودعوته الإصلاحية. وكعادته حاول هشام الحط مـن شـأنه بعـدم السـماح لـه بدخـول القصـر مـع أن أبـواب القصـر كانت مفتوحـة ذلـك اليوم للجميـع! ومنع زيد مـن الدخول، ثـم أذن له ودخل.. وتعمـد هشـام تجاهلـه، وتظاهـر بعـدم الانتبـاه إليـه وهـو سـلوك امتـاز به الطغاة للتعويض عن النقص وشعور بالحقارة أمام الأحرار.. وسلم زيد كما تقتضـي الآداب، وأراد هشـام الحـط منه بعـدم رد التحية. أمام العشـرات من الحضور حيا زيد الخليفة تحية رسـمية كما هي مراسـم الدخول على

الخلفاء وسلاطين بني أمية، ولكن هشام لم يرد وامعن في تجاهله.. ولم تمض سوى لحظات حتى دوّت كلمات لم تعهدها أروقة البلاط ولا حواشي الملوك.. لأن المرء متى دخل بلاطاً وجد عند عرش السلطان ركعا وسجودا. ترى أي بركان كان يتفجر في صدر زيد عند ما هتف:

- السلام عليك يا أحول؛ فإنك ترى نفسك أهلا لهذا الاسم.

وأراد هشام الرد فصاح:

- بلغني أنك تذكر الخلافة، وتتمناها، ولست أهلا لها وأنت ابن أَمَة!

أجل إن أم زيد ليست عربية، وفي هذا منقصة بحسب ثقافة الحكم الأموي القومية، ولكن هل يكفي أن تكون عربيا لتشمخ بأنفك وتتعالى على الشعوب والأقوام الأخرى؟! وردّ زيد بمنطق الأنبياء والأحرار والشهداء:

- إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات وقد كانت أم إسماعيل أَمَة لأم إسحاق، فلم يمنعه ذلك من أن بعثه الله نبياً، وجعله أباً للعرب وأخرج من صلبه خير الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله حقاً ما قاله الباقر عليه السلام: «سلاح اللئام قبح الكلام»[1].

لقد فقد الطاغية توازنه وهو يقول بلا حياء:

- ما يصنع أخوك البقرة؟!

و انفجر بركان غضب مقدس في أعماق زيد ورد بشجاعة:

---

١. حلية الأولياء: ٣/ ١٨٤.

- سمّاه رسول الله الباقر، وتسميه البقرة؟! لشدّما اختلفتما لتخالفنه في الآخرة كما خالفته في الدنيا فيرد الجنة وترد النار[1].

كان ما حصل ثورة كاملة.. كلمة حق أمام سلطان جائر، وفقد هشام توازنه وصرخ بالحرس:

- أخرجوه.

وتخطفوه ليخرجوه، وراح هشام يتميز حنقاً والتفت إلى من حوله قائلاً:

- ألستم تزعمون أن أهل هذا البيت قد بادوا.. لا لعمري ما انقرض قوم هذا خلفهم.. أجل هؤلاء هم بقية السيف، ولن يدرك الطغاة أبدا أن من المستحيل إخماد الثورة.

وتنفس زيد ملء رئتيه هواءً طلقاً.. الهواء داخل قصور الطغاة هواء بارد ولكنه فاسد.. الهواء النقي هو ما يتنفسه الأحرار من خلال الثورة والتمرد على الواقع الفاسد ورفض الطاغية.

وفي خارج قصر الطاغية انفجرت كلمات ثائر.. لقد قرر زيد الثورة عندما قال خارج القصر:

- ما كره قوم حر السيوف إلا ذلوا.

---

١. شرح النهج: ١/ ١٣٥١، عمدة الطالب: ٨٣.



ثمن الحرية

إن ضريبة الكرامة والحرية هي الدم؛ وثمن الحياة في ظل الطغاة الذل والخنوع.. إن قدر زيد أن يكون ثائرا ويكون شاهدا وشهيداً؛ وقف التاريخ ذات ليلة وقد سطعت النجوم في سماء الصحراء بين مكة والمدينة.. وكانت الثريا قد استوت في السماء قال زيد لصاحبه وهو يحاوره:

- أما ترى هذه الثريا؟ أترى أحدا ينالها؟

قال له صاحبه:

- وكيف لابن الثرى أن ينال الثريا؟!

قال زيد وهو يتأمل السماء المرصّعة بالنجوم:

- والله لوددت أني أهوي من الثريا إلى الأرض فأتقطع قطعة قطعة، وأن الله أصلح بين أمة محمد[1].

كان زيد يمثل ضمير الأمة الذي يتململ تحت نير الطغاة، ولكن الأمة لم تكن بمستوى إرادته، ومن المؤكد أن وجود الظلم لا يبعث وحده على الثورة؛ هناك الإحساس بالظلم والإرادة التي تقهر حب الحياة وبالتالي تكسر حاجز الخوف.

وجود الظلم وحده لا يؤدي إلى رد فعل ثوري، وفي تلك الحقبة العاصفة وقع المجتمع الإسلامي في أزمة فكرية حادة، وانقسم المجتمع

---

١. مقاتل الطالبيين: ١٢٩.

إلى من يقول بالجبر والحتمية وأن كل شيء هو قضاء وقدر إلهي لا يجوز بل لا يمكن الاعتراض عليه فضلا عن مواجهته. وكردّ فعل لهذا الجنوح الفكري الخطير برز تيار آخر لا يقل خطورة وهو الحرية المطلقة والتفويض البشري؛ حيث لا علاقة لله عز وجل بالفعل الإنساني(١). في تلك الظروف بدأ الإمام الباقر عليه السلام التأسيس لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، فطرح إطاراً فكرياً يجمع بين القدرة الإلهية وشموليتها للسلوك البشري وإرادته؛ حيث اقتضت مشيئة الله سبحانه منح الإنسان الحرية ليمارس تجربته ويتحمل تبعا لذلك المسؤولية، غير أن إمكانات الدولة الهائلة راحت تعزز من فكرة جديدة مؤثرة هي فكرة الإرجاء التي تعلن بأن الإيمان عمل قلبي لا يحتاج إلى فعل يجسده ويعبر عنه، وفي حالة بروز فعل مضاد للإيمان فإنه لا علاقة له بالإيمان، وقد استغل الأمويون فكرتَي الجبر والإرجاء، ويعد معاوية رائدا في مسألة إخضاع الأمة لإرادة الحاكم المستبد.. ذلك أن كل شيء يقع إنما هو بإرادة الله ومشيئته، وأن الإنسان مسلوب الإرادة لا حول له ولا قوة، وأنه كالريشة في مهب عاصفة الأقدار. وهكذا أصبح تسلط خلفاء بني أمية وبعدهم خلفاء بني العباس قدرا من الأقدار الإلهية، فهم كالطاعون والزلازل والبراكين! من أجل هذا قال الإمام الباقر في حق أخيه زيد: إنه لساني الذي أنطق به. لقد قوّض بثورته فيما بعد(٢) كثيرا من الأفكار المخدِّرة، وأصبحت تعبر وبوضوح تام عن

١. كقول بعض الأساطير اليونانية أن الآلهة خلقت الإنسان، ولما عجزت عن السيطرة عليه تركته وراحت تشرب الخمر!!

٢. دوت شعارات الثورة في سنة ١٢١ هـ، وكادت تعصف بالحكم الأموي وهي وان أخفقت

فكر مدرسة أهل البيت عليهم السلام وموقفهم من الظلم والظالمين، ومن أجل هذا أوصى الإمام الباقر أصحابه المقربين قائلا: إذا دعاكم فأجيبوه، وإذا استنصركم فانصروه.

رحى الأيام

وتدور رحى الأيام، ويشعل التاريخ الحوادث هنا وهناك، الفتوحات العسكرية تستمر، وتسقط قاعدة كاشغر الاستراتيجية في تركستان[1]. وفي عام ١١٠ توفي «ابن سيرين» البصري مفسر الأحلام المشهور، كما توفي الشاعر «جرير»، كما توفي الحسن البصري[2]. وفي عام ١١٢ هـ

إلا أنها أصبحت فاتحة لسلسلة من الثورات العنيفة والحركات الثورية أدت إلى سقوط الأمويين في سنة ١٣٢ هـ

١. تُدعى اليوم سينكيانغ (الصين الجديدة) منذ السيطرة عليها في التوسع الشيوعي؛ حيث اقتسم الروس التركستان مع الصين.

٢. الحسن البصري: هو الحسن بن يسار البصري: أبو سعيد. كان أبوه من أهل ميسان، سبي حين فتحها، وجيء به إلى المدينة، وأصبح مولى لزيد بن ثابت الأنصاري- من كبار التابعين- كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء النساك. ولد بالمدينة ونشأ في كنف علي بن أبي طالب، ثم سكن البصرة، استكتبه الربيع بن زياد الحارثي، والي خراسان، في عهد معاوية. لم يكن التحكيم بين علي ومعاوية من رأيه؛ لأن عليا صاحب الحق ويجب ألا يقبل التحكيم. كان عظيم الهيبة في القلوب، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم ولا يخاف في الحق لومة لائم. له مع الحجاج مواقف وقد سلم من أذاه. لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن البصري: إني ابتليت بهذا الأمر فانظر لي أعواناً يعينونني عليه، فأجابه الحسن: أما أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك، فاستعن بالله. توفي بالبصرة عن ٧٩ عاما. الأعلام: ٢/ ٢٤٢، وفيات الأعيان: ٦٩/٢، حلية الأولياء: ١٣١/٢، النجوم الزاهرة: ١/

اشتعلت المعارك في جبهات القتال الشمالية الشرقية، وتمكنت القوات الإسلامية من تحرير كثير من الأراضي المحتلة واسترداد مدينة أردبيل في إقليم إيران. وفي عام ١١٣ هـ تقدمت الجيوش الإسلامية في الأراضي الفرنسية وتمكنت من الاستيلاء على مدينة «بوردو» عند مصب نهر الرون. وفي عام ١١٤ هـ وقّع إمبراطور الروم ليون الثالث حلفا مع ملك الخزر ضد الدولة الإسلامية، وهزم الجيش الإسلامي بعد إحرازه نصرا ساحقا في مدينة «بواتيه»، وذلك بسبب اختلافات حادة حول توزيع الغنائم؛ دعيت المعركة في التاريخ الإسلامي بـ «بلاط الشهداء»، وقد لقي القائد الشجاع عبد الرحمن الغافقي[1] مصرعه. وفي هذا العام وفي إحدى قرى الحميمة

٢٦٧، المعارف: ٤٤٠، الكامل للمبرد: ٥٦٢، شذرات الذهب: ١/ ١٣٨،البداية والنهاية: ٩/ ٢٦٨

١. عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر الغافقي من قبيلة غافق، وهي فرع من قبائل عك باليمن، من كبار القادة، اتصل بموسى بن نصير في الأندلس، وتولى قيادة الشاطئ الشرقي في سنة ١٠٢ هـ بعد مصرع السمح بن مالك في إحدى المعارك، وقاد الجيش الإسلامي في عملية الانسحاب. انتخبه المسلمون أميرا على الأندلس. وفي عام ١٠٥ عزل عن الإمارة ثم أعيد إليها في عام ١١٢. هو بدأ استعداداته لفتح فرنسا، فوجه دعوة إلى المسلمين في اليمن والشام إلى مساندته، وتدفق المتطوعون إلى الأندلس، وألّف منهم جيشا كبيرا فاجتاز جبال (البرانس) بجيش من العرب والبربر، وأوغل في مقاطعتي (اكيتانيا) و(بورغونيه) واستولى على مدنية (بوردو)، ودحر جيوش (شارل مارتل)، وتقدم يريد الإيغال في فرنسا، فجمع (شارل مارتل) جموعه وألف جيشا كبيرا من الفرنسيين وقبائل الجرمن، فنشبت حرب كانت دامية في (بواتية) بقرب نهر (الوار) قتل فيها عبد الرحمن وانسحب المسلمون. وكان سبب خسارتهم الحرب انشغالهم بالغنائم التي كانوا غنموها في حرب جنوبي فرنسا، وثارت بينهم أهواؤهم العصبية، فاستغل (شارل مارتل) ما قام بينهم من خصومات وفاجأهم بجموع غفيرة واضطرهم إلى الانسحاب، فأضاعوا الكثير

في ضواحي المدينة المنورة لزم الإمام الباقر عليه السلام فراش المرض، وكان عليه السلام قد بدأ يشعر بدنو الأجل؛ فقد قال ضمن حديثه مع عمته فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام:

- لقد أتيت على ثمان وخمسين سنة[1].

وكان عليه السلام يريد أن يقول بأن أباه قد توفي في هذا السن، وجده الحسين كذلك، وأنه لم يبق له في الحياة فسحة من العمر، لقد أدى ما عليه، لقد فجر الأرض ينابيع، وغرس فسائل الحكمة ونثر بذور الوعي، وسوف تنبت أشجار المقاومة وتؤتي أكلها ولو بعد حين. وسرت همسات بين الآذان بأن الإمام قد دُس إليه السم[2]. ومن غير المستبعد أن يلجأ هشام إلى هذه الوسائل في تصفية خصومه ومنافسيه.

مهما يكن الأمر فقد بلغ الكتاب أجله، ولكل أجل كتاب. وأمضى الأمام الساعات الأخيرة من حياته في قراءة آيات القرآن العظيم، ثم أغمض عينيه عن الدنيا ليفتحهما على عوالم أخرى... عوالم مفعمة

مما كانوا غنموه، واستشهد منهم الكثير. تُجمع الروايات الإسلامية على الثناء على عبد الرحمن الغافقي؛ بل يذهب بعضها إلى القول بأنه أعظم ولاة الأندلس وأكثرهم فضيلة وأشدهم إخلاصا في القيام بما تفرضه الأندلس عليها من الواجبات، وهو يمتاز عن ولاة الأندلس بسلامته من النزعة العصبية التي أفسدت على معظم الولاة أعمالهم. الأعلام: ٤/ ٨ ابن الأثير: ٥/ ١٧٤، نفح الطيب: ١/١١١ ، ٣٠٧، البيان المغرب:٢/٢٦، ابن خلدون: ٤/ ٢٥٧، دولة الإسلام في الأندلس:١/٨٩-٩٧، فجر الأندلس: ١٥٥، ٢٦١، ٢٦٥.

١. تذكرة الخواص: ٣٥٠، كشف الغمه: ٢/ ٣٣٢.

٢. أخبار الدول: ١١١.

بالنور والدفء والسلام.

وشيع نعش الإمام عليه السلام من الحميمة إلى ثرى البقيع.. بقيع الغرقد ليوارى الثرى إلى جوار أبيه الإمام زين العابدين وجوار سبط رسول الله وريحانته الحسن بن علي عليه السلام، وكان ابنه جعفر يذرف الدموع بصمت كغيمة حزينة. لقد رحل عليه السلام والتحق كغيره بالقافلة قافلة الراحلين... أما كلماته فقد ظلت بذورا مجنحة تبحث عن أرض تنبت فيها.. كلماته ما تزال غضة طرية شفافة لأنها نبعت من نفس اكتشفت الحقيقة، وعرفت الطريق.. حقيقة الوجود والطريق إلى خالق الوجود... بل أنه لا وجود إلا لذات المعبود، وما عداه سراب يحسبه الظمآن ماء. من أجل هذا كان عليه السلام يقول في مناجاته وقد سطعت النجوم في السماء وبدت كقلوب تنبض بالحب الإلهي:

- يا كائناً قبل كل شيء! ويا باقياً بعد كل شيء.

واصغِ إليه وهو يقول: «إن استطعت ألا تعامل أحدا إلا ولك الفضل عليه فافعل».

- «صحبة عشرين سنة قرابة».
- «ما عرف الله من عصاه».
- «اعرف المودة في قلب أخيك بما له من قلبك».
- «الإيمان؛ حب وبغض».



- «من كنوز البر: كتمان الحاجة، وكتمان الصدقة، وكتمان الوجع، وكتمان المصيبة».
- «أفضل العبادة! عفة البطن والفرج».
- «الحياة والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه».
- «إن الله يحب إفشاء السلام».
- «لا يزال الرجل يزداد في رأيه ما نصح لمن استشاره».
- «سلاح اللئام؛ قبيح الكلام».
- «لا يكون المعروف معروفا إلا باستصغاره وتعجيله وكتمانه».
- «ما أحسن الحسنات بعد السيئات، وما أقبح السيئات بعد الحسنات».
- «إن الكذب هو خراب الإيمان».
- «شر الآباء من دعاه البر إلى الإفراط، وشر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق».
- «ما من نكبة تصيب العبد إلا بذنب».
- «بئس الأخ يرعاك غنيا ويقطعك فقيرا».
- «إذا دخل أهل الجنة، الجنة بأعمالهم فأين عتقاء الله من النار؟

إن لله عتقاء من النار».

- «إذا شبع البطن طغى».
- «من طلب الدنيا استعفافاً عن الناس، وسعيا على أهله، وتعطفاً على جاره لقي الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر».
- «لو صمتُ النهار لا أفطر، وصليتُ الليل لا أفتر، وأنفقت مالي في سبيل الله علقاً علقاً ثم لم تكن في قلبي محبة لأوليائه، ولا بغض لأعدائه ما نفعني ذلك شيئاً».

بعض أصحابه

- إنما نحن إخوة.

قال عليه السلام:

- أيدخل أحدكم يده في كيس صاحبه فيأخذ ما يريد؟
- لا!
- لستم إخواناً كما تزعمون[1].
- ما الحنيفية؟

---

١. مرآة الجنان، ١/ ٢٤٨.



- هي الفطرة التي فطر الناس عليها.. فطرهم على معرفته»[1].
- أتعرف شيئا خيرا من الذهب؟
- نعم.. معطيه، خطاب لمن بلغه الكتاب.

قال عليه السلام: «إذا أردت أن تعلم أن فيك خيرا؛ فانظر إلى قلبك، فإن كان يحب أهل الله عز وجل، ويبغض أهل معصيته ففيك خير، والله يحبك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله، ويحب أهل معصيته فليس فيك خير، والله يبغضك؛ والمرء مع من أحب»[2].

باقة ورد أضعها بين يديك يا سيدي وسلام عليك في العالمين.

١. البحار:١٢/٨٧

٢. علل الشرائع: ١١٧.

سوف تتفتح في وجوده
عبقرية فريدة، وسوف تجده يشمّر
عن ساعديه يبقر أرض المعرفة بقراً،
مستخرجاً كنوز العلم والثقافة الأصيلة
ليتألق في سماء المعرفة
ويعرف لدى الناس بالباقر.

كلمات

الموقع الرسمي